رومل:
أحب الصحراء.. فهزمته الصحراء

هناك اسم غريب بين «جنرالات الشرق». لا هو فرنسي مثل جنرالات «المشرق»، ولا هو بريطاني مثل أولئك العسكريين الإنكليز الذين هاموا بالصحراء من أطرافها إلى أطرافها وكأنها حديقة غناء في أواسط لندن. إنه الماريشال أروين رومل.

لقد خرج رومل في نهاية الأمر مهزوماً من الحرب العالمية الثانية. وخرج مهزوماً من معركته الكبرى من أجل الوصول إلى مصر. لكن الغرابة أن الجميع يعاملونه وكأنه منتصر، والمؤرخون الغربيون الذين يلعنون عسكر النازية صباحاً ومساء يعاملون أروين رومل بإعجاب غريب. ولعل السبب الأول والأخير أنه في الحرب حيث تسود القذارات، حرص رومل على الأعراف، وفي الحرب حيث لا تعود هناك مبادئ، حرص رومل على احترام القواعد. أما السبب الآخر فهو أن الرجل ولو أنه هزم في النهاية، فقد كان من الصعب جداً أن يهزم.

لقد وضع البريطانيون ثلاثة من كبار قادتهم في وجه أروين رومل. ومن أجل أن يهزم هذا الماريشال الألماني الوسيم، كان تشرشل يغير الجنرالات في ليبية ومصر وتونس، كما يغير سيجاره المشتعل أبداً.

إذاً، من هو رومل الذي قرأنا عنه في الفصول عن ويفل وأوكينلك؟

إنه العام 1944. وبالتحديد في 18 أيار/مايو، ثمة من يبلغ هتلر خلال الاجتماع الحربي هذا الصباح أن العدو قد نفذ عمليتين تخريبيتين على الساحل الفرنسي على الرغم من دفاعاته الشديدة. وفي مسرح العملية الأولى تبادل الألمان النار مع الكوماندوس المهاجمين، أما في الثانية - قرب نهر السوم - فقد تم اعتقال ضابطين بريطانيين.

وفي صوت متهدج قال الجنرال ألفرد جودل رئيس العمليات العسكرية في الفيرماخت لسيده ألفوهرر «لقد جاءا بقارب من المطاط أنزله مركب بريطاني بخاري».

يتغير المشهد إلى قصر فرنسي عتيق، مبني على ظهر صخرة ضخمة تطل على وادي السين. وكان ذلك بعد يومين من الاجتماع بقيادة ألفوهرر. تقف سيارة عسكرية مسرعة أمام القصر، ويترجل منها جنديان متعبان من عناء الرحلة التي بدأت قرب المانش. يتقدم العسكريان وخلفهما رجلان عصبت أعينهما وشد وثاقهما. إنهما من الكوماندوس البريطاني. عند المدخل تفك العصبة عن أعينهما فتلمع الشمس فيهما لمعاناً محزناً. لقد كانا يعرفان أن أوامر ألفوهرر واضحة: كل رجل كوماندوس يعتقل يسلم إلى رجال الغستابو فوراً ويرمى بالرصاص.

يدفعهما الجنود إلى زنزانات مختلفة، لكنهما يجدان هناك فناجين شاي وقطعاً من الخبز. يرفض أحدهما، اللفتانت روى وودريج أن يتفوه بأي كلمة، أما الضابط الآخر جورج لين فيساق إلى مقابلة الكولونيل هانز - غيروغ فون تمبلهوف. ويقف تمبلهوف بكل هدوء ويقول لأسيره بتحبب: «لا بد أن الطقس جميل في إنكلترة اليوم».

ودهش لين أمام طلاقة الرجل في الإنكليزية، فشعر تمبلهوف بذلك وسارع إلى التوضيح: «إن زوجتي إنكليزية». وراح يتأمل أسيره طويلاً، ثم وقف فجأة وطلب إليه أن يذهب ليغتسل: «إنك ستقابل شخصاً مهماً... شخصاً مهماً جداً. الفيلد ماريشال رومل»!

كان الحلفاء على بعد 17 يوماً فقط من موعد الهجوم الكبير على فرنسة التي يحتلها النازيون، وفي مرافئ بريطانية كانت أساطيل ضخمة تتجمع، استعداداً لتلك العملية الحاسمة في الحرب الكونية الثانية. ومن أجل ذلك فقد وضع هتلر على رأس القيادة في فرنسة ماريشاله المفضل أروين رومل، ثعلب الصحراء الشهير، والرجل الذي دوخ الأميركيين والبريطانيين من قبل.

إنه يعرف ماذا يغضب الأعداء، ويستطيع أن يتكهن بكل حركة سوف يأتونها. وقد لاحظت طائرات الاستكشاف التابعة للسلاح الجوي الألماني قبل أيام حشداً لسفن الإنزال قبالة منطقة السوم. ثم جاءت عملية الكوماندوس لتؤكد أن الغزو الحليف سوف يبدأ من هناك. لكن أنى لهذا العسكري الذكي أن يعرف أن سفن الإنزال تلك

كانت نماذج فارغة، وأن رجال الكوماندوس أنزلوا عمداً لكي يزودوا الألمان بمعلومات كاذبة! لقد كان كل شيء جزءاً من خطة خادعة دبرها الإنكليز.

اختار رومل هذا القصر المنيع مقراً له لأنه مليء بالأقبية. وقد أضاف إلى الأنفاق الأساسية أنفاقاً أخرى حفرها رجاله في الصخرة الضخمة. ومنذ خمسة أشهر وهو يعد الجيش الألماني للهجوم الحليف، فيزرع الأسلاك الشائكة والأفخاخ البشرية والألغام والمصائد. ومن ثمَّ فإنه لم يفاجأ بأن يركب الإنكليز المخاطر لكي يعرفوا ماذا يدبّر!

يدخل اللفتانت لين إلى مكتب الفيلد ماريشال، فيراه جالساً ينظر من النافذة. إنها غرفة طويلة ضخمة، مزينة جدرانها بأربع لوحات نادرة، وأرضها مغطاة بالسجاد الثمين، وقد انتشرت التحف في كل زاوية منها. أما رومل نفسه فكان قد بدأ يخسر بعض وسامته الشهيرة: إنه الآن مائل إلى السمنة، وشعره بدأ يتساقط، لكن عينيه الزرقاوين تزدادان عمقاً. وبدأ واضحاً ذلك النهار أن الشمس قد لوحت وجهه بسبب جولاته الكثيرة على الساحل. وكان يضع حول عنقه وسام الاستحقاق المذهب، الذي منحه في العام 1917 وهو أرفع وسام كانت تقدمه بروسية لضباطها.

يقف رومل ويحيي أسيره البريطاني بلطف. ثم طلب من لين أن يتقدم ويجلس، وقبل أن يفعل، يقول له:

إذاً، أنت واحد من رجال الكوماندوس المجرمين؟».

فيرد لين قائلاً:

- «إنني فخور بكوني من رجال الكوماندوس، ولست مجرماً».

ويقول رومل: «ربما لست مجرماً. لكن لنا تجارب سيئة معكم معشر الكوماندوس. فهم لم يتصرفوا دائماً كما يجب». ثم يضحك ساخراً ويضيف «إنك طبعاً في مأزق، فأنت تعرف ماذا نفعل بالمخربين».

يتطلع لين إلى المترجم ويقول له: «لو كان سيدك يعتقد أنني مخرب، لما دعاني إلى هنا».

فضحك رومل وقال: «إذاً، أنت تعتبر هذه دعوة».

فيجب لين: «يجب أن أعترف بأنني أعدّها كذلك، ولذا فأنا أشعر بالفخر».

ويضحك الجميع. ثم يقول رومل: «بالمناسبة، كيف حال صديقي القديم مونتغمري».

ويجيب لين: «إنه ممتاز. شكراً. وقد سمعت مؤخراً أنه يعد لغزو ما».

وتصنع رومل الدهشة: «هل تعني أنه سوف يكون هناك حقاً غزو ما؟».

ويرد الأمير: «هكذا تخبرنا «التايمس». وهي كما تعرف جريدة موثوقة».

وقال رومل: «إنك تعرف ولا شك أنه سوف يترتب على الإنكليز للمرة الأولى أن يقاتلوا بصورة حسنة».

فأجاب لين: «لكن كيف قتالهم في إفريقية؟».

آه، رد رومل: «لقد كان ذلك لعب أطفال. والسبب الوحيد الذي جعلني أتراجع آنذاك هو أن المؤن لم تعد تصل إلي».

وأخذ رومل مدة عشرين دقيقة يستعيد ذكريات الحرب، ويلقي على لين العظات حول تراجع بريطانية وانحسار امبرطوريتها، وحول المستقبل العظيم الذي ينتظر الرايخ الثالث. ويعتذر لين: هل يسمح له الماريشال بهذا السؤال: أليس الاحتلال العسكري ظلماً؟

لا. يرد رومل. ثم إن العسكريين، بسبب تنشئتهم، يتحولون إلى ديكتاتوريين مثاليين. إن الجنود معتادون على الأزمات، وهم يعرفون كيف يواجهون أقصى حالات الطوارئ: «ولو أنك تجولت في أنحاء فرنسة اليوم، وفتحت عينيك جيداً، لرأيت كم هم الفرنسيون سعداء. ها هم يعرفون للمرة الأولى ماذا يجب أن يفعلوا، لأننا نحن الذين نعلمهم ذلك! وهذا ما يفضله السواد الأعظم من الشعب».

بعد فترة تعصب عينا اللفتانت لين من جديد. ويخرج من مكتب رومل إلى معسكر الاعتقال و... العفو كما شاء الماريشال! وفيما هو يركب السيارة، أمسك بذراع آسره الكولونيل ستارب واسر، وقال له:

«هل لي بطلب منك؟ قل لي أين نحن الآن».

ورفض ستاوب واسر بتهذيب، لأسباب أمنية. لكن لين عاد يصر: «أقسم لك بأنني لن أخبر أحداً، لكن غداً عندما تنتهي هذه الحرب، أريد أن أحضر أولادي وأقول لهم: هنا قابلت رومل».

في العام 1944 كان رومل قد أصبح أسطورة حية. فقد عرفه أعداؤه وجنوده معاً، إنه يملك مقدرة نادرة على القيادة: إنه لا يكف عن القتال، لكنه لا يسأم من العفو. يعرف كيف ينتصر ويعرف كيف يعامل المهزومين. كان يهاجم مثل إعصار، كما يقول المؤرخ ديفيد إرفينغ، لكن أعداءه كانوا يحسدونه على أسلوبه في الانسحاب.

رأى فيه بعض الناس هنيبعل معاصراً، يعرف كيف يطوق أعداءه، وكيف يدكهم ويهبط معنوياتهم، وكيف يحقق النصر بعد النصر، إلى أن ترغمه «قوة خارجة عن كل إرادة» على الانسحاب، وكان يفعل ذلك بأقل كمية ممكنة من الخسائر.

كان فتياً دائماً بالنسبة إلى رتبته العسكرية، يعشقه جنوده حتى الموت، ويقال إنه أحيا في الحرب تلك الفروسية التي نسيها الناس منذ زمن. ففي حرب نسف فيها الناس جماعات، ودمرت فيها المدن حتى الحجر الأخير، كان رومل يأمر جنوده بالقتال مع الخلق. كان يحترم الأسرى والممتلكات الخاصة. وإننا نقرأ في أمر يومي إلى جنوده في إيطالية في العام 1943: «لا تنهبوا. حافظوا على النظام، واحترموا الفيرماخت الألماني». وقد رفض فكرة السخرة في فرنسة ودفع للعمال رواتبهم بالطرق العادية. وفي العام 1942 تجاهل حتى اللحظة الأخيرة أوامر هتلر الشهيرة بالإعدام الفوري لكل رجال الكوماندوس، وعندما اعتقل بعض العرب الذين عملوا إلى جانب الحلفاء رفض الانتقام من الرهائن قائلاً: «الأفضل أن نترك هذه الحوادث من دون ثأر، من أن نثأر من الأبرياء».

لم يكن يشعر بالفرح في قتل جندي عدو، في حين أن المارشال مونتغمري كان يقول: «اقتلوا الألمان أينما وجدتموهم». وكان أيزنهاور يقول: «بالنسبة إليّ كل جندي يقتل ألمانيةً هو رجل أحبه، وإذا كان بإمكاني أن أساعده على قتال اثنين بدلاً من واحد

فعلت ذلك». لم يتفوه رومل إطلاقاً بمثل هذه الأقوال، بل كان يكتفي بالتفوق على عدوه ذكاء وخداعاً وقوة، ويقال إن متعته الكبرى كانت في حمل عدوه على الاستسلام قبل الوقت الضروري.

وقبل أي شيء كان جنرالاً مقاتلاً، يندفع إلى الميدان قبل الجميع غير عابئ بأي أخطار، وإنه كما يقول إرفينغ: الرجل الذي لم تمزقه قذيفة عدو، ولم يقتله لغم، ولم تسقط على مقربة منه قنبلة تصرعه. ولقد كانت أسطورة رومل قوية لدرجة أنها أسرت أعداءه قبل حلفائه. وقد عمد الحلفاء إلى تضخيم أسطورته خلال الحرب، في البداية لكي يبرروا خسائرهم، ثم بعد ذلك لكي يرفعوا من شأن انتصاراتهم. كذلك كان هناك سببٌ ثالثٌ هو إبراز هذا الألماني النبيل بوصفه نقيضاً للقذارات النازية الأخرى.

لقد كان هناك زمن كان فيه اسم رومل وحده يساوي بضعة فرق. وعندما أقعده المرض أخفى الأمر عن الجنود لكي لا يصيبهم الإحباط. وعندما أيقن الحلفاء أن رومل لم يعد حقاً في أرض القتال، بدأت حملة من التكهنات الغريبة. وامتلأت واشنطن بإشاعات تقول إنه يقود جيشاً سرياً في اليونان أو رومانية أو يوغوسلافية. أم هل هو فعلاً في إيطالية؟ في فرنسة؟

ولقد تعرض رومل مرتين لعملية اغتيال. وفي المرتين نجا مثل هتلر. وساد العالم شعور بأنه «لا يقهر». وكان أول المصدقين رومل نفسه.

أينما تلفت كان يرعب الحلفاء. وفي آذار/مارس 1942 كتب قائد القوات البريطانية في إفريقية الشمالية السير كلود أوكينلك إلى ضباطه يحذرهم: «ثمة خطر من أن يتحول صديقنا رومل إلى أسطورة في نظر جنودنا، لكثرة ما يتحدثون عنه. إنه ليس سوبرمان، على الرغم من طاقته ومقدرته. وحتى لو كان سوبرمان حقاً فإنه ليس لجنودنا أن ينعموا عليه بهذا اللقب».

وبعد ذلك بأربعة أشهر وصلت نسخة من هذه المذكرة إلى رومل فضحك. كذلك أبلغ رومل أن برنارد مونتغمري، خلف أوكينلك، كان يعلق في قاطرته صورة لرومل. أما الفيلد ماريشال نفسه فيبدو أنه لم يعجب بأحد من أعدائه. إنه لا يذكر أحداً منهم بالاسم في آلاف الصفحات التي تركها من مذكراته.

إذا كانت هذه نظرة الأعداء إلى رومل فماذا كانت نظرة شعبه؟ الحقيقة أنه كان قد أصبح أسطورة بالنسبة إلى الألمان منذ العام 1941 وهوليوود، مصنع الأساطير، أدت - هي أيضاً - دوراً في صناعة صورة رومل. ونادراً ما كتب جنرال إلى آخر من دون الإشارة إليه أو إلى أمثولاته. فقد أجمع هؤلاء على أن الرجل ربح معارك كان صعباً على الآخرين أن يأملوا بربحها. لكن للأسف فإن رومل تعلم فن الإستراتيجية وتكتيك القتال في ميدان القتال. والميدان وحده ليس كلية كاملة. فالخبرة القتالية لا تكفي وحدها بالنسبة إلى الجنرالات. وكان رومل ينظر باحتقار إلى ضباط الأركان العامة، ولذا حاول أن ينجح من دون العلم الذي أتقنوه، أي الاستخبارات والتموين وسلاح الإشارة والعمليات وغيرها. ومن هنا يقول أحد نقّاد الجنرال إينو فون رينتلن: «لم يكن رومل إستراتيجياً كبيراً، بل كان يفتقر إلى تدريب ضباط الراين الذي يمكن أن يجعل منه واحداً. وقال الجنرال غيرها رد فون شفيرن الذي قاتل إلى جانب رومل، بكل سخرية: إن الفيلد ماريشال «تعلم الكثير من الأخطاء التي ارتكبها». أما الفيلد ماريشال غير فون روندشت فقال إن رومل لم يكن «أكثر من قائد فرقة جيدة».

بعض هذه الانتقادات كان لها في رأي الخبراء ما يبررها. وثمة من يقول إن النقص الآخر لدى رومل بالنسبة إلى بقية رفاقه، هو تكرسه المطلق للفوهرر، الذي كان بدوره يعد رومل ماريشاله المفضل. وقد عرف رومل أيضاً كيف يدير الآلة الدعائية حول «ألمانية الجديدة» وحول نفسه، بحيث نشأت حركة من نوع «عبادة» رومل، كما قال أحد الجنرالات الألمان، ونادراً ما ذهب إلى مكان من دون طابور من المصورين، كما أن أكثر الصور التي التقطت له كانت «مخرجة» و «مدبرة» مثل فيلم سينمائي حسن الإخراج.

ويقال إن ضباطه عرفوا نقطة ضعفه هذه، فكانوا يعمدون من أجل استمالته إلى وضع مصورين في انتظاره كلما زار نقطة ما، حتى لو كانت آلات التصوير خالية من الأفلام!

وقد رأى بعض الجنرالات في ذلك بعداً عن المهنية والروح العسكرية، وقد كتب الجنرال هاينز غودريان إلى زوجته من أرض القتال في موسكو يقول لها: «لن أسمح

لنفسي في أي ظرف من الظروف أن أحيط اسمي بهذه الدعاية الفارغة على الطريقة الرومانية، وإذا ما حاولت ذلك فأرجو أن تمنعيني».

لقد عبّر الآخرون عن حسدهم لرومل في أشكال كثيرة. وقال أحد الجنرالات مردداً الإشاعة الأكثر شعبية: إنه «كان يتحدث إلى هتلر بالهاتف شخصياً كل أسبوع»! أما الحقيقة فهي أنه تحدث إلى الفوهرر مرة يتيمة خلال الحرب كلها. وقد كان مغتبطاً بهذه المكالمة، لدرجة أنه كتب عنها في عدة مناسبات فيما بعد. لقد كان الحسد وليد الأسطورة نفسها، وقد أدى هذا الحسد دوراً في نهاية رومل المأساوية. إذ عندما احتاج إلى أصدقاء لم يكن هناك أحد.

بعد موت رومل كبرت الأسطورة أكثر فأكثر. وفيما خجل الألمان بعد الحرب بالجنرالات الآخرين، فقد ظلوا يفاخرون برومل الذي أطلق اسمه على أحد السفن الحربية. ولعله الجنرال الوحيد من الحرب العالمية الثانية الذي أطلق اسمه على بعض الشوارع. وقد وضع الأميركيون، أعداء الأمس فيلماً ملحمياً عنه بعنوان «ثعلب الصحراء».

إنه اللقب الذي ربحه في صحاري ليبية، التي عرفت حتى الاستقلال بأنها «برقة» و«طرابلس».

ويستحيل أن نكتب عن رومل «ثعلب الصحراء» أو بطل «العلمين» من دون الدخول في ملحمة كتابية. لذلك، وكما فعلنا بالنسبة إلى الجنرالات الآخرين. لا بد من فصل واحد. لماذا لا يكون ذلك الفصل عن رومل على مشارف «العلمين»، المعركة التي رفعت اسمه ورافقته في التاريخ.

ها هو رومل على بعد مئة ميل فقط من القاعدة البريطانية البحرية الضخمة في الإسكندرية. وقد بدا للبريطانيين آنذاك أن مصر أصبحت في متناول يده، ولذا فإن بين الخطط التي وضعها الجنرال أوكينلك، لائحة بأسماء المنشآت التي يجب تدميرها حين يقترب رومل من النصر: محطات إذاعة، وآبار نفط، ومحطات تلغرافية، ومولدات الطاقة. وفي الوقت نفسه باشر البريطانيون بتعزيز الدفاعات

حول الأهرام. وثمة من أبلغ رومل أن حالة الطوارئ قد أعلنت في العاصمة المصرية، وأن القوات البريطانية تتولى حفظ الأمن في القاهرة.

كانت شهرة رومل قد سبقته. كان يعرف أن المصريين المتعبين من الاستعمار البريطاني ينتظرون وصوله بحماس لم يحاولوا إخفاءه، ولذا فإنه كان يأمل بأن يضع المصريون نهاية للجيش البريطاني الثامن عن طريق التظاهرات. وهكذا، أبرق من الشاحنة التي جعلها مقراً متحركاً إلى وزارة الخارجية في برلين يطلب «استخدام أقصى حد من الدعاية في مصر في أقرب وقت ممكن».

وفي لندن كان ونستون تشرشل يقاتل من أجل المحافظة على منصبه. وكان النائب العمالي أنورين بيفان قد أطلق آنذاك جملته الشهيرة: إن تشرشل ربح مناقشة بعد أخرى، لكنه خسر معركة بعد أخرى. والآن كان عدد من النواب المحافظين قد تقدموا بطلب لسحب الثقة من تشرشل. وقد وقف السير جون والدرو ميليني في البرلمان ليقول له بكل تحدٍ: «إنه لواضح تماماً لأي مدني أن سلسلة الكوارث التي حلت بنا في الأشهر القليلة الماضية ـ وفي الحقيقة خلال العامين الماضيين ـ ناتجة عن عيوب جوهرية في القيادة المركزية للحرب». ويقف الأدميرال كيز ليؤيد هذا الاقتراح، الرجل الذي فقد ابنه في الهجوم العبثي على مقر رومل. ثم يقف اللورد ونثرتون مؤيداً هو أيضاً قائلاً لتشرشل: إن بريطانية «لم تعان مثل هذه الهزائم في الحرب الماضية».

في اليوم الآتي، 2 تموز/يوليو 1942، يزداد الهجوم على تشرشل حدة. ويقول أحد النواب: إن سبب الهزائم الروح الطبقية التي تسيطر على الجيش، ثم يضيف: «هناك قناعة في هذا البلد أنه لو كان رومل بريطانياً، لكان ما زال عريفاً في الجيش».

يقف تشرشل مدافعاً، فينقل اللوم من كتفيه إلى أكتاف جنرالاته: كلوبير وريتشي وحتى أوكينلك نفسه. إنه سيد من خطب طبعاً. ثم ينتقل إلى هناك ـ الهزيمة في إفريقية الشمالية ـ من دون أن ينسى أي تفصيل حزين، متحدياً أنه «إذا كان هناك من يرى الكارثة بوضوح أكثر منه فليتفضل». وينجو تشرشل بجلده ذلك النهار، عندما يضع اللوم كله في هزيمة الجيش الثامن على... كفاءة رومل.

وتلقفت ألمانية هذا الكلام بفرح بالغ. وغداة ذلك اليوم صدرت صحيفة «برلينز بورسنتسايتونغ» بعنوان عريض: «تشرشل يقول: «رومل هو المسؤول». وفي بروسية الشرقية يغرز هتلر سكينه في العشاء النباتي الذي يتناوله، ثم يروح يشرح غلطة تشرشل التكتيكية في رفع معنويات جنرال عدو. ويقول: يسألنا الناس كيف يتمتع رومل بهذه الشهرة العالمية، والحقيقة أن الفضل في ذلك يعود أحياناً إلى خطابات تشرشل في مجلس العموم، حيث يصور رومل دائماً على أنه قائد عبقري». يضحك الفوهرر ثم يضيف: «إن الاسم وحده يصبح سلاحاً مرعباً. تصوروا لو أننا أخذنا نقول مثل هذا الكلام عن الماريشال السوفياتي تيموشنكو! إن جنودنا أنفسهم سوف يرون فيه في النهاية رجلاً متفوقاً».

وإذ انصرف النواب البريطانيون إلى التصويت في الأروقة، كانت قوات رومل أمام طريق مسدود مع قوات أوكينلك. فقد وصل جيش البانزر إلى دفاعات «العلمين» ومعه فقط 53 دبابة ألمانية و 32 دبابة إيطالية. وكانت القوات منهكة من التعب، يعذبها العطش والحر. وقد سمح رومل لنفسه بالاستحمام مرتين في البحر، لكن المياه كانت حارة إلى درجة أنها أتعبته ولم تنعشه. وعندما طلبت الكتيبة التسعون أن يسمح لقناصتها بالشيء نفسه، رفض رومل ذلك، ودفعهم أكثر نحو أرض المعركة.

بعد ثلاث ساعات من منتصف ليل 2 تموز/يوليو، استقل قناصة الفرقة التسعين ورجال الرشاشات شاحناتهم، وتحركوا في تشكيل عريض نحو العلمين. وهبت عاصفة رملية هائلة، أعمت رجال رومل وجعلتهم يسقطون في قلب الدفاعات المعادية. وكانت أول مرة ترد فيها كلمة «رعب» في المفكرة الحربية الألمانية. وانهارت مجموعات من الفرقة، وتراجعت إلى الخلف، لكن الضباط أرغموها على العودة إلى خطوط القتال، وعلى التمرس هناك، وبعد ذلك جاء رومل بسيارته إلى الموقع، وشعر فوراً بقسوة القصف المدفعي على قوته الصغيرة المؤلفة من 20 شاحنة ومصفحة.

وكتب الألماني إمبرستر عن تلك الليلة قائلاً: «لقد كان الأمر مرعباً حقاً. فقد انفجرت قذيفة على بعد ستة أقدام فقط من سيارة القائد العام. وتحت نيران شديدة حفرنا بجنون خنادق، واختبأنا فيها طيلة ثلاث ساعات، وكان الغسق قد أطل قبل أن

نستطيع الخروج منها». وقد ازداد الأمر سوءاً، إذ راحت تمطر في المساء، فاختلط المطر المتواصل بالقصف الجوي المتواصل.

كانت قد بقيت لدى «الفيلق الإفريقي» 37 دبابة فقط. وكان لا يزال على مسافة بعيدة قليلاً. وكالعادة لم يطل الإيطاليون، أما الفرقة التسعون المسكينة، فقد فقدت ثلاثة أرباع قوتها العادية. وعلى الرغم من ذلك أمر رومل الكتيبة بأن تستأنف القصف حين يطلع القمر. وقد شجعته الآن أنباء من السلاح الجوي الألماني، تفيد بأن الأسطول البريطاني قد رسا في الإسكندرية وأنه يستعد للاختباء في أمان قناة السويس. وقد شعر رومل آنذاك بأن معنويات «المحور» أفضل من معنويات أعدائه.

كتب إمبرستر يقول: «كانت ليلة مخيفة. وبين منتصف الليل والرابعة صباحاً، كانت هناك ثماني طائرات تقصفنا باستمرار». وقبل الفجر بساعة واحدة بدأ قناصة الفرقة التسعين قصفاً ميدانياً من دون استعداد مدفعي. وبعد 2000 قدم فقط سحق هجومهم وسط نيران مدفعية رهيبة. وأبلغ رومل بالأمر في العاشرة من ذلك الصباح غير أنه لم يهدأ. وبعد ظهر ذلك اليوم أمر «الفيلق الإفريقي» بدفع كتيبتي الدبابات إلى القتال، في محاولة أخرى لشق الطريق إلى الساحل. وفي الساعة 4.30 بعد الظهر اضطرت الفرقة التسعون مرة أخرى إلى التوقف، بعدما تقدمت 500 ياردة أخرى. وفي غضون ذلك، التحمت فرقتا البانزر بالألوية البريطانية المدرعة في قتال عنيف استمر حتى هبوط الظلام. آنذاك كان قائد الفرقة الجنرال نيرنغ قد خسر 11 دبابة أخرى، وانخفض عدد دباباته إلى 23 فقط.

اليوم الآتي، 3 تموز/يوليو أوقفت اندفاعات رومل في كل مكان. وهو يسجل في مفكرته ظهر ذلك النهار أنه كان يتعرض للغارات الجوية باستمرار، وأنه يحاول حث ضباط المدرعات على المزيد من الجهد. ويسجل ضابط آخر إن «القائد العام مقتنع بأن كتيبتي الدبابات تتسكعان بكسل. وفي الساعة 12.50 أمر الفيلق الإفريقي كله بالزحف بأي ثمن. غير أن رومل كان الآن يخاطب الصم أو الموتى أو الذين لا معنويات لهم. حتى «أريبيت»، الفرقة الإيطالية الأسطورية بدأت بالانهيار. فقد هاجمتها الفرقة النيوزلندية بكل بأس ذلك الصباح، واستولت على ما تبقى من مدافعها وأسرت منها نحو 380 رجلاً، أما باقي الإيطاليين فقد رموا أسلحتهم، وأطلقوا سيقانهم للرياح.

ويبدو أن رومل أيقن أخيراً أنه يخوض معركة خاسرة عندما قتل أقرب ضباطه إليه، الكابتن فون همومايير. وقد اعترف في لحظة ضعف نادرة بأن «الأمور تسير للأسف عكس ما نشاء. إن المقاومة التي نلقاها كبيرة جداً، فيما قوتنا تزداد ضعفاً. إنني منهك حقاً». وصباح الرابع من تموز/يوليو أبلغ ضباطه المتعبين بالقرار الصعب. إنه سوف يسحب المدرعات من الخطوط الأمامية، ويستبدلها بالمشاة، وخصوصاً الإيطاليين. وبذلك يمكن رجال «البانزر» من الاستراحة، وإعادة تنظيم أنفسهم. وبعدها ـ أكد رومل ـ يستأنف الحملة.

كان موسوليني قد طار إلى ليبية مع مجموعة من وجهاء الفاشية، وراح ينتظر بفارغ الصبر لحظة الدخول إلى القاهرة. كذلك كان في الانتظار، حصان «الدوتشي» الأبيض. وطارت البرقيات بين برلين وروما حول تعيين حاكم إيطالي على مصر. وفي غضون ذلك بث البريطانيون إشاعات تفرقة تقول إن ثروات مصر سوف تسقط في أيدي الجيش الألماني وحده. وكانت هذه واحدة من الإشاعات التي زرعت الفوضى والشك في صفوف الإيطاليين الذين تحت قيادة رومل، وما إن حل منتصف الشهر حتى أبرق إلى برلين يقول: إن «كتائب كاملة» قد لاذت بالفرار. والواقع أن شقوقاً حقيقية بدأت الآن تظهر في جبهة «المحور». ومن مقر رومل نفسه كتب ألفرد برندت إلى وزير الدعاية غوبلز، يبلغه أن الجنود الألمان يشعرون بالتذمر من المدائح التي تعطيها الصحف الألمانية للإيطاليين. وقال غوبلز لأركانه: «إن على أحدنا أن يشرح لرومل لماذا قرر الفوهرر أنه من الضروري أن ندغدغ مشاعر الإيطاليين».

كان رومل ينظر إلى هذه الأمور على أنها سياسات تستدعي الاحتقار، لكنه قرر أن يتجاهل الأمر، إلى أن يكون قد انتهى من احتلال القاهرة. وكان هو أكثر من غيره، يعرف صعوبة الوضع الذي هو فيه، فقد كان مستوى الذخيرة والوقود منخفضاً إلى أقصى الدرجات، وكانت وحداته متعبة. وفي شهر حزيران/يونيو وحده فقد الفيلق 845 قتيلاً، فيما أصيب 318 رجلاً بجروح. وكانت خطوط التموين الألمانية طويلة وصعبة، بينما خطوط أعدائهم قصيرة وسهلة. لكن حتى الآن كان الألمان قد حافظوا على مواقعهم بسبب تفوقهم في السلاح. كذلك أظهرت المعارك الأخيرة أن القوات الحليفة كانت تستفيد من الالتحام بجيوش رومل، وهذا خفض من نسبة تفوق الألمان.

كانت القوات الإيطالية تنتشر على خط طويل، يمتد من مياه المتوسط الزرقاء في «العلمين» إلى المستنقعات المالحة في منخفض «القطارة» على بعد 38 ميلاً. وكان رومل مأخوذاً بوعورة المنخفض، فلا يتعب من التأمل فيه. وإننا نقرأ مذاكرات ذلك الشهر كيف أنه غالباً ما يقف على مرتفع يطل على تلك الكثبان المليئة بالصمت والزمن، والتي لم يطأها على الأرجح بشري من قبل. وطالما التقط له رجال غوبلز الصور وهو يتأمل في المنخفض على عمق 600 قدم! هل كان ينوي أن يعبر ذلك الوعر نحو النيل؟

وذات مرة من ذلك الشهر قال لمساعده، الخبير في الشؤون المصرية: «برندت، سوف أطلب منك أن تسيطر على جسر فوق النيل لم يلحق به أي دمار». فأجاب الضابط ضاحكاً: «كان عليك ياسيدي أن تطلب مني ذلك في العام 1939».

كان رومل ينوي أن يدفع بدبابات البانزر عبر ثغر جنوب آخر خط القتال في 11 تموز/يوليو. وقبل ذلك بيومين احتل موقعاً مهجوراً لأعدائه في «باب القطارة». وفي هذا الموقع الحصين اجتمع إلى بسمارك، قائد الفرق المدرعة، ذي الرأس الذي يشبه الرصاصة، وكالعادة استخدم رومل الأقلام المتعددة الألوان لكي يرسم هجوم البانزر المقبل. وأقام مقر البانزر المتقدم في ذلك الحصن المهجور أيضاً، لكنه اكتشف فيما بعد أنه كانت في الموقع مستعمرة من الذباب. وهكذا اختار «القائد العام أن ينام في سيارته حيث يمر الليل بسلام».

أثناء نومه سمع رومل صوت الرعود، ثم في الرابعة صباحاً سمع الصوت ثانية، وكان الصوت بعيداً. وحين استيقظ جيداً عرف أن هذا ليس الرعد على أي حال، بل هو صوت قصف مدفعي شديد، لم يسمع مثله منذ الحرب العالمية الأولى. ثم أصغى من جديد فعرف أن القصف آتٍ من بعد 40 ميلاً فقط إلى شماله! لقد بدأ العدو هجوماً مفاجئاً وغير متوقع على تلتين قرب الساحل، يتمركز حولهما الإيطاليون. وتساءل رومل في قلق: هل وقعنا في فخ؟

لقد خشي رومل فوراً أن يصل البريطانيون إلى خطوط التموين. وكتب مساعده في مفكرة ذلك النهار: «لقد اتجهنا شمالاً على الفور بالسيارات، ومعنا فرقة مقاتلة

ومجموعة من رجال البانزر. وقد تولى القائد العام بنفسه إطلاع المقاتلين في الميدان على آخر التطورات». وقبل وصول رومل كان قائد العمليات ميللنتان قد دفع بكل وحدة ألمانية متوافرة لملء الفراغ؟ إداريين ومشاة وسلاح إشارة وحتى الطباخين. ذلك أن الفرقة الإيطالية المدافعة «صبراته» ذابت تحت القصف مثل الملح هاربة نحو ستة آلاف يارد. وتتحدث مذكرات رومل عن الحادث بتهذيب: «لقد كانت هناك مظاهر تدعو إلى الأسف في صفوف الوحدات الإيطالية». غير أن ضابطاً آخر يفقد جأشه في وصف الإيطاليين: «لقد دمر البريطانيون كتيبتين من قاذورات صبراته».

وفي تلك الساعة أيضاً سقط الكابتن سيبوم، الضابط الألماني الذي أظهر المقاومة الوحيدة، وقد فقد فيه رومل سنداً ذكياً وفنياً، كان يمكنه دائماً من التفوق على الإنكليز في التشويش على الاتصلات. الآن سيبوم قد مات، ورجاله المدربون أفضل تدريب قد أسروا ومعهم كتب فك الرموز القيمة. ولا شك في أن تلك الخسارة قد أثرت في رومل لشهور طويلة، وهذه الكتب المصادرة أظهرت للحلفاء كم كان جهاز الاتصالات عندهم ضعيفاً. الآن، إذاً، سوف يقاتل رجال البانزر كالعميان. ولن يكون بإمكان رومل أن يضبط بعد اليوم تلك الرسائل التي بعث بها الملحق العسكري الأميركي في القاهرة الكولونيل فيللرز إلى واشنطن. فقد استدعى فيللرز إلى عاصمته، تاركاً برلين في حزن شديد، «لقد كان يبلغنا سلفاً بكل تحركات العدو».

صباح اليوم التالي، في العاشر من تموز/يوليو هاجم الأوستراليون إحدى التلتين، (تل العيسى)، واحتلوها في منتصف النهار. وحقق طابور صغير من الدبابات والمشاة انتصاراً مهماً آخر على الإيطاليين في منطقة دير الأبيض. الأمر الذي جعل أحد ضباط رومل يدون: «يجب جلد الإيطاليين بالسياط. لقد حاصرت ستٌّ دبابات بريطانية كتيبة كاملة، وأسرتها في شاحنتين. إن هذه الأمة من الـ... يجب أن ترمى بالرصاص! وإنهم لا يزالون يطلبون منا أن نقاتل من أجلهم. إنه لعار كبير، وموقف القائد العام يدعو حقاً إلى الشفقة».

كان لهذه الهجمات المحدودة مضاعفات تكتيكية خطيرة على رومل، ذلك أنها أخلت في توازن جيش البانزر، وجردت رومل من احتياطي الوقود والذخيرة الذي كان ينوي استخدامه للقيام بحملته.

في 13 تموز/يوليو جعل فرقة البانزر الحادية والعشرين بقيادة بسمارك، تقوم بهجوم آخر على خطوط الحلفاء، وكانت خطته تقضي بقطع الطريق على المنطقة المعروفة «بالصندوق» في العلمين، ثم القيام بهجوم ساحق. وقرر أن يقوم بالهجوم ظهراً حين يكون كل شيء معرضاً للذوبان في حر الصحراء، ومن ثَمَّ يجعل من المستحيل على المدافع المعادية أن تصيب أهدافها. وفي الظهيرة تماماً تحركت الدبابات وسط عاصفة رملية هائلة، حجبتها عن الأنظار. وتقدم رومل كالعادة بسيارته إلى منطقة المعركة، لكن كان من الصعب أن يتبين أي شيء.

ولم يعرف إلا في الخامسة بعد الظهر أن كتيبة البانزر توقفت عند جبل في منطقة القصابة. وفي غضون ذلك كان السلاح الجوي الألماني ينتظر بفارغ صبر، ليعرف ما هي الأوامر الآتية. وأخيراً في السادسة والنصف، تحركت القاذفات والدبابات معاً.

بعد ذلك بدا كل شيء مفرحاً. ونحو الثامنة اتصل رومل بمساعده فالداو، فوجده مرتفع المعنويات، وأبلغه أن فرقة البانزر استغلت الهجوم الجوي الناجح لتقتحم خطوط الحلفاء، «وهي ستحاول الوصول إلى الطريق الساحلي شرق العلمين الليلة». غير أن الحقيقة البشعة، كما يصفها ضابط من فرقة المشاة الملحقة بجيش البانزر، كانت مختلفة تماماً. «إننا ننبطح أمام الأسلاك الشائكة التي زرعها العدو، وقد عجزت كل الأدوات التي نستخدمها عن اختراقها. ولم تصل معنا إلى هنا سوى كاسحات أسلاك قليلة العدد. إنه الغسق، وأرض المعركة مضاءة فقط بنيران الآلات المحترقة، وضوء القمر. وفجأة، تستدير دباباتنا في الاتجاه المعاكس، فهل نفد لديها الوقود أم الذخيرة؟ ها هو الكابتن فون روتنفلد يقفز على أقرب دبابة لكي يمنعها من التراجع. وفجأة تسقط عليه قذيفة مضادة للدبابات وتمزقه. وعند منتصف الليل يقود الميجور شوتي كتيبتنا إلى التراجع من جديد».

في غضون ذلك عاد رومل من أرض المعركة إلى مقر قيادة جيش البانزر، وتشير مفكرته إلى أنه «نحو العاشرة ليلاً أبرقت قوات البانزر معلنة أن هجومها قد أخفق أخيراً». وهكذا يصدر رومل أمره إلى الفرقة بالعودة إلى منطلقها الأول. لا العاصفة الرملية أفادت، ولا الهجمات الجوية.

لقد كانت علة رومل الأساسية في الإيطاليين. فقد انهارت فرقتان إيطاليتان أخريان، هما بافيا وبريسكيا، وهذا زاد في وضوح التكتيك البريطاني أمام رومل، الذي كتب إلى زوجته في 17 تموز/يوليو يقول: «إن العدو يحاصر تشكيلاً إيطالياً بعد آخر. وقواتنا الألمانية أضعف من أن تصمد بمفردها. إنني أشعر بحاجة إلى البكاء»، وبعد كتابة هذه الرسالة أبلغ أن الأوستراليين اخترقوا وحدات إيطالية جديدة، وحملوا رجالها على الفرار. وهكذا وجد نفسه يرمي في المعركة آخر ما عنده من الاحتياط.

وعندما زاره أفراد القيادة الإيطالية ذلك اليوم أبلغهم بكل أسى: «إننا لم نعد نحتمل. ضربة أخرى من هذا النوع وينتهي كل شيء». وفي اليوم الآتي، 18 تموز/يوليو، شعر بالارتياح حين لم يواجه بأي مفاجآت أخرى، كانت الجبهة هادئة، وقد أمضى اليومين الآتيين يتفقد الخطوط كلها، فيأمر بزرع الألغام، وتحصين المواقع، وغير ذلك. وقال لقائد الفرقة التسعين بمرارة «إن فشل الفرق الإيطالية الأربع التي دمرت تقريباً، قد وضعنا في أزمة لن تنتهي إلا بوصول الأعداد الكافية من القوات الألمانية خلال 8 أو 10 أيام».

في 21 تموز/يوليو بدا وكأنه أكثر تفاؤلاً. فقد تجمعت لديه نحو 42 دبابة ألمانية و50 دبابة إيطالية. وكتب في مفكرته: «شكراً للعناية الإلهية، فقد هدأت الجبهة الآن، وتسنى لي أن أخزن بعض الأسلحة. لكنها سوف تكون أزمة طويلة. فالحشود على الجانب الآخر تتم بسعة وسهولة». وكان قد أخذ آنذاك يرتدي سرواله القصير من جديد. لقد كان هناك جحيم من الذباب والحر والرطوبة.

كان كلود أوكينلك يهدف من هجومه الآتي، قبل أي شيء، إلى تدمير قوة البانزر المدرعة، وقد بدأ الهجوم ذلك المساء بطلعات جوية عنيفة وضخمة أكثر منها فاعلية، يرافقها قصف مدفعي مكثف، وخلال ساعات الظلام، استطاع فصيل نيوزيلندي أن يتقدم من الجنوب نحو منخفض المرير الأجرد، وهو أشبه بصحن نحاسي وسط الصحراء. وكان من المفترض أن يرفق أوكينلك ذلك بهجوم للمدرعات عند الفجر.

غير أن الجنرال نيرنغ كان يراقب الوضع عن كثب، وأعطى مدرعاته الأوامر بصد الهجوم قبل ثلاث ساعات من وقوعه في الرابعة صباحاً.

في تلك اللحظة كان الألمان في حالة تأهب قصوى، بكل ما لديهم من أسلحة. ساعاتهم مربوطة بالساعة الصفر. وكان النيوزيلنديون قد اطمأنوا لدرجة أنهم نصبوا الخيام في المنخفض. وفي اللحظة المحددة أطلقوا في الجو إشارات نارية تعلن بدء الهجوم، فكان أن الذي بدأ هو الألمان، الذين التفوا بدباباتهم على المهاجمين، وكلفوا الجنرال أوكينلك أكثر من ألف قتيل وأطنان الأسلحة.

بعد ذلك بدأت المرحلة الثانية! فقد دفع الحلفاء بمئة دبابة إلى القطاع نفسه من الشرق. وكانت هذه الدبابات حديثة الصنع، وصلت للتو من بريطانية. وفي السابعة والنصف اقتحم الرتل حقول الألغام. وتخطّى خط الدفاع الألماني عند رجال المشاة القليلي العدد. آنذاك قام كولونيل يدعى برونر بدبابات البانزر (بسمارك كان قد أصيب) لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، فأوقف فرار كتائب المدفعية الهاربة، وجعلها تواجه الحلفاء من جديد. ثم اقتحم بدوره جناح العدو وقلب الموازين. وخلال ساعتين من القتال استطاع ضباط رومل، بما يملكونه من مهنية وكفاءة، أن يجردوا البريطانيين من 200 رجل و 87 دبابة.

كانت هناك بطولات على كل مستوى. ولعل أبرزها تلك التي أظهرها النفر غونثر هالم الذي لم يتعد التاسعة عشرة، فقد كانت مهمة هالم أن يعبئ المدافع الروسية من عيار 76.2 المضادة للدبابات، والتي كان يفترض أنها آخر موقع دفاعي، قبل أن يتمكن العدو من الاقتحام. غير أن طاقم المدفع لم يستطع أن يحفر في الأرض الصلبة لتركيزه، وهكذا جلس مدفعيان على ذنبه لامتصاص ارتداده. وفجأة أقبل على الموقع طابور من الدبابات البريطانية. وخلال دقيقتين كان هالم ينسف أربع دبابات من طراز فالنتاين. وتوقفت الدبابات الأخرى لتبحث عن الموقع الظاهر على أي حال، ثم فتحت النار عليه. وسقطت قذيفة بين ساقي هالم. ثم قذيفة على ساق رفيق له، فأخذ مكانه مدفعي آخر، ثم دمرت خمس دبابات بريطانية أخرى قبل أن تعطب مدفع هالم. وفي غضون ذلك كانت فرقة البانزر قد وصلت، وقضت على الرتل الحليف. وقال أحد الضباط الإنكليز الأسرى غاضباً: «لقد أمضينا عامين في التدريب، وقطعنا نصف الكرة لكي نصل إلى هنا، ثم في خلال نصف ساعة انتهى كل شيء!». بعد ذلك

بأسبوع منح رومل النفر هالم وسام الفرسان، وكانت تلك أول مرة يعطى فيها مثل هذا الوسام لنفر في تاريخ الجيش الألماني.

بعد ظهر اليوم الآتي، 23 تموز/يوليو، كتب أحد ضباط رومل في مفكرته: «لقد انعكس التيار بشيء من الانتقام! وها هو الفصيل البريطاني المدرع قد أبيد. لقد فقد الإنكليز 146 دبابة و1200 رجل. يا لها من لحظات مثيرة. وقد أدار القائد العام المعركة هذه المرة من المؤخرة، وجعل الرعب يدب في نفوس الإنكليز».

قام رومل بجولة في الميدان، فشكر قواته وأثنى على رجاله ووزع الأوسمة. ثم راح يتفحص الدبابات البريطانية الحديثة التي وصل بعضها إلى مسافة 2000 ياردة من دبابات البانزر، لكنها رابضة الآن، وإلى جانبها طواقمها الذين قتل بعضهم وأسر بعضهم الآخر. وكتب رومل في رسالة إلى صديق: «إن الصعوبات التي مررنا بها في الأيام الأخيرة تفوق كل وصف. لكننا بالطبع لا نزال بعيدين جداً عن رأس الحربة. إن العدو يملك تفوقاً عددياً هائلاً، لكنه يبذل الكثير قبل أن يستبدل الدبابات التي دمرناها في اليومين الماضيين».

الآن أيضاً أعطي الفرصة لأن يقرأ بريده. وهذه رسالة من نائب هتلر، رودولف شموندت، ومعها إشارة السيف التي كان رومل يحتاجها ليصبح برتبة فيلد ماريشال. لكن قبل أن يفض تلك الرسالة، فتح الرسالة الآتية من زوجته وفيها صورة ابنه مانفرد. وقبل أي شيء أخذ يقرأ التقرير المدرسي الذي أفرحه: لقد تقدم مانفرد عن المرة السابقة. وبعدما قرأ رسالة زوجته إليه، وفيها تبلغه أن زوجة بسمارك اتصلت بها قلقة لأنها لم تسمع من زوجها منذ فترة، فنقل رومل الأمر إلى بسمارك فوراً، (بعد ذلك بثلاثة أسابيع مات بسمارك). كذلك أخبرته زوجته أن آخر أشرطة الأخبار السينمائية تعرض فيلماً لموسوليني في إفريقية وآخر للقادة الإيطاليين برفقة رومل حول خطوط العلمين. وطار صواب رومل. فقد كانت زوجته تعرف أيضاً مدى ما يعانيه مع الإيطاليين. وفي رسالة أخرى تروي له لوسي أن ونستون تشرشل يقوم بزيارة إلى ستالين، «آه كيف تتساقط هذه البريطانية العظمى. واليوم أيضاً أعلن أن عدوك أوكينلك قد أقيل، وعين مكانه الجنرال مونتغمري»! لم يكن هذا الاسم يعني شيئاً لرومل بعد.

ها هو يحزر في أوائل آب/أغسطس 1942 أن أمامه أربعة أسابيع أخرى قبل أن يقوم البريطانيون بهجوم جديد. وفي الوقت نفسه فإن حملة هتلر الضخمة باتجاه بلاد القفقاز الروسية سوف تؤثر في تحركات البريطانيين في الشرق الأوسط، وكان يعرف أن بإمكان جيش البانزر أن يتحمل هجمات متوسطة الحجم من العدو لكنه أصدر أشد الأوامر محذراً من الاستسلام لمثل ذلك الرعب الذي دب في قواته في تموز/يوليو: «إنني أطلب من كل رجل أن يتمسك بموقعه وألا يتراجع. إن التخلي عن مواقعكم يعني الإبادة. وإنكم تعرفون أن محافظتنا على مواقعنا في المعارك الليلية جعلتنا نربح مع القليل من الإصابات. كل من يهجر موقعه سوف يتهم بالجبن ويقدم إلى المحكمة العسكرية» التوقيع: رومل.

ثمة شيء كان شديد الوضوح : الانتصار أو الهزيمة يتوقفان على القوات الألمانية المتمركزة هنا. لم تغب هذه الحقيقية عن بال رومل. وقد رد على الجنرالات، الذين كتبوا إليه يهنئونه بالترقية قائلاً: «إن هذه الثقة الرفيعة التي منحني إياها الفوهرر هي في الواقع نتيجة لشجاعة جنودي الألمان فقط».

شيئاً فشيئاً أخذ يملأ الثغرات. وخلال تموز/يوليو استقبل نحو 5400 عسكري، والكتائب الأولى من فرقة جديدة هي الـ164. وهذا يعني أن نحو 123300 عسكري جديد قد وصلوا إلى إفريقية الشمالية الآن. وكان المزيد يصل بمعدل 1000 في اليوم. ومع أوائل آب/أغسطس وضعت تحت قيادة رومل أيضاً وحدة خاصة من السلاح الجوي، هي فصيل المظليين الأول. وكان قائد الفصيل أشبه بوحش سينمائي، إذ امتلأ فمه بالأسنان المعدنية التي استبدلها بأسنانه التي فقدها خلال هبوط اضطراري في كريت. وكان رجاله أيضاً من المتفوقين. لكن بما أنهم كانوا من السلاح الجوي وليس من الجيش، فإن رومل لم يعطهم الكثير من الانتباه. لكنهم كانوا «ألماناً ونظاميين»، كما يقول إرفينغ، وهكذا دفع بهم رومل إلى خط الدفاع الواقع بين المنخفض والبحر. وكانت المدفعية الجديدة تصل باضطراد، والذخيرة تتكوم، والألغام تزرع بكل إتقان. كذلك كانت تصل يومياً وحدات إيطالية إضافية... لكن رومل لم يضعها في حسابه: «هذه البضاعة التي تصلنا لا نفع فيها». وفي 29 تموز/يوليو عندما اجتمع إلى قائد

فرقة «بولونيا» للمشاة الجنرال اليساندرو غلوريا ضرب هذا على صدره وأقسم أن القوات الإيطالية لن تعمد «إلى الفرار أبداً».

والواقع أن الإيطاليين أسهموا هذه المرة بوحدة من الدرجة الأولى، مدربة على أيدي الألمان. وقد توضحت نوعية تدريبهم عندما ألقى قائد الوحدة التحية العسكرية على رومل. لكن خلافاً لتلك التحية وإعجابه بها، لم يغير رومل رأيه: «إن ما أحتاجه هنا ليس الإيطاليين، والمزيد من الإيطاليين، بل جنوداً ألمان وعتاداً ألمانياً أستطيع معهم أن أقوم بحملتي في نهاية الأمر».

الآن نشأ نوع من الخلاف بينه وبين أركانه. فقد قرر، خلافاً لنصيحة الضباط، أن يرمي بجيش البانزر كله مرة واحدة، وأن يقتحم خط العدو في الطرف الجنوبي منه، فيلتحم بالجيش الإنكليزي هناك، وفي الوقت نفسه يقوم بهجوم صاعق على جسور النيل في القاهرة والإسكندرية. وثمة خريطة في أوراق رومل، تظهر كيف رسم زحف كل فيلق وفرقة وكتيبة، على أن يندفع نصفها من القاهرة نحو قناة السويس ويتحول النصف الآخر من القاهرة جنوباً في محاذاة النيل إلى قلب إفريقية. ويبدو أن زواراً غامضين وصلوا إلى عربيه آنذاك. كان هؤلاء ضباطاً مصريين وعدوه بإعلان انتفاضة عسكرية ضد الإنكليز، في الوقت الذي تصل قواته إلى القاهرة والإسكندرية. لكن مع اقتراب شهر أيلول/سبتمبر كان قد أيقن أن الجيش الثامن من القوة بحيث يصعب على رومل نفسه أن يهزمه. إذاً، لا بد من الهجوم في آب/أغسطس. ولأنه يفضل المعارك الليلية فلا بد من ضوء القمر. إذاً، أيضاً، نهاية آب /أغسطس: «وبعدها سوف ننجح في هذه البوابة الأخيرة قبل حقول مصر الخصبة».

طوال شهر آب/أغسطس حفر جنود رومل الخنادق. وكان الصدى في الصحراء يحمل بعيداً صوت المعاول والانفجارات. وزرعت عشرات الآلاف من الألغام، تحسباً لأن يقوم الحلفاء بالهجوم أولاً. ويبدو أن كاتب رومل قد تعب من اللحاق به، فهو يدون في الثاني من آب/أغسطس: «إنه حر لا يطاق، لكن القائد العام لا يتعب».

لكن هذا الأتون في دلتا النيل لن يحرق دبابات البانزر وحدها، بل إن رومل أيضاً أصيب بالمرض. وفي الثاني من آب /أغسطس بدأ يشعر بالتعب، ثم في منتصف الشهر

كان قد تعب حقاً. والواقع أنه كان الضابط الوحيد الذي تخطى الأربعين من العمر، وأمضى كل هذا الوقت في الصحراء، وفي 11 آب /أغسطس لاحظ أركانه أنه مصاب بصداع دائم، وبألم في الحنجرة. وكتب طبيبه تقريراً يقول فيه إنه مصاب أيضاً بهبوط في ضغط الدم نتيجة اضطرابات معوية.

وأبرق رومل بنص التقرير إلى برلين، وأوصى بأن يخلفه الجنرال هانز غودريان. وفي الوقت نفسه طلب مساعده أن ترسل إليه ـ دون علمه ـ خضروات طازجة كل يوم.

في 24 آب/أغسطس شعر رومل بأنه قادر على تحمل الرحلة إلى مرسى مطروح لإجراء تخطيط في القلب. وحين عاد إلى مقر قيادته وجد برقية تقول: إن برلين لم توافق على غودريان، لأن بنيته لا تتحمل حر الصحراء كفاية (السبب الحقيقي أن هتلر كان غاضباً من غودريان لأنه عصى أوامره في الشتاء السابق)، وهكذا بقي رومل في مكانه شبه عليل.

في هذه الحالة من المرض، راح رومل يخطط لأكبر حملة في التاريخ ضد الإمبراطورية البريطانية. وراح أيضاً يحلم أنه بعد ستة أسابيع سوف يسافر إلى النمسا، حيث يستطيع أن يستحم في مياه جارية، وأن يكون إلى جانب لوسي ومانفرد... لكنه قبل ذلك سوف يكتب في تاريخ الحروب فصلاً لا مثيل له بعنوان: العلمين!

العلمين:
سوف يربحها مونتغمري

خاض معركة العلمين أربعة من أشهر جنرالات الحرب العالمية الثانية على الجانبين، البريطاني والألماني. وكان يخيل إلى الناس أن العلمين مدينة إستراتيجية كبرى، تقاتل من أجلها الحلفاء ودول المحور بكل قواهم وحتى اللحظة الأخيرة. لكن العلمين لم تكن في الحقيقة سوى تل صغير على بعد نحو مئة كيلومتر من الإسكندرية عند الطريق الساحلي إلى مرسى مطروح، أقيمت فيه محطة صغيرة بين الخط الحديدي والبحر.

في هذه المحطة الصغيرة كان يتوقف الجنود البريطانيون المتمركزون في مصر، قبل الحرب العالمية الثانية، من أجل أن يمضوا ليلة مريحة، وهم في الطريق إلى مرسى مطروح.

ولم تكن هناك آنذاك طريق معبدة بل ممر، وأما في محطة «تل العلمين» فكان باستطاعة المرء النزول إلى المياه الصافية الزرقاء، من أجل الاغتسال من رمال الصحراء وتعب الطريق، كما يقول المؤلف مايكل كارمز.

إضافة إلى العلمين كانت قرية الحميمات على بعد نحو ستين كيلومتراً إلى الجنوب، محطة مشهورة أخرى عبر الصحراء بين القاهرة ومرسى مطروح، ومنها إلى بلدة سيوة، كان يقوم حاجز طوله نحو 200 ميل، لا يمكن للعربات أن تخترقه إلا في مكان أو مكانين، وتعرف هذه بمنخفض القطارة، وهي أرض مالحة رطبة على 200 قدم تحت سطح البحر، لا تستطيع حتى الجمال عبورها إلا في أمكنة قليلة. وإلى الشمال منها، وحتى سيوة كانت تقوم سلسلة من التلال الحادة. أما من الزاوية الجنوبية الغربية لهذا المنخفض، وعلى مقربة من سيوة، فكان يمتد حاجز هائل آخر، يمتد إلى الجنوب والغرب مئات الأميال، ويعرف ببحر الرمل الكبير.

جنوب هذه الحواجز أو الأسوار وشرقها، كانت تمتد الصحراء، برمالها المغطاة بطبقة من الحصى الناعمة. وكان بالإمكان أن تقطع هذه المسافات في شاحنة قليلة الحمولة، ذات دواليب صحراوية خاصة، شرط ألا تسد الطريق عليك فجأة الكثبان الرملية التي تكونها الرياح. أما إلى الشمال والغرب فكانت الطبيعة الصحراوية مختلفة تماماً، فلا أهوار مالحة، ولا رمال إلا عند البحر، وما عدا ذلك أرض صخرية تستطيع أن تتحمل من الشاحنات والناقلات ما لا حد له. وكانت تقطعها في بعض الأماكن المنخفضات والتلال ومساحات من الرمل الناعم أو الأجمات التي يمكن أن تسد الطريق في أي وقت، بحيث يصبح السير مستحيلاً في الليل من دون الأضواء العالية.

إذاً، لم تكن تخفى على أحد الأهمية الإستراتيجية لهذا العنق من الأرض الممتدة بين العلمين والحميمات، والتي لا بد لأي جيوش تهاجم مصر من الغرب أن تعبرها، وقد كانت الصحراء الممتدة مئات الأميال غرباً، الحاجز الطبيعي في وجه المهاجمين قبل بدء العصر الآلي!

كيف حدث إذاً وتحول هذا العنق من الأرض الممتدة نحو 30 ميلاً، في خريف العام 1942، إلى ساحة لإحدى أكبر المعارك بين جنود الإمبراطورية البريطانية من جهة، وبين جيوش هتلر وموسوليني من جهة أخرى؟ كانت الجيوش البريطانية تتمركز في مصر منذ العام 1882، حين أنزل السير غارفت وولزلي الجنود القادمين من إنكلترة في الإسماعيلية، وأولئك القادمين من الهند في السويس، وألحق الهزيمة بقوات الخديوي إسماعيل في التل الكبير، بينما كان الأسطول الملكي يقصف الإسكندرية. وبعد افتتاح قناة السويس في العام 1869 أخذت بريطانية تعطي أهمية أكبر بكثير لذلك العنق الضيق من الأرض بين المتوسط والبحر الأحمر. وعندما انهار اقتصاد الخديوي، وعجز عن تسديد ديونه الخارجية، دعت بريطانية فرنسة إلى مشاركتها في حماية المصالح الأوروبية في مصر، لكن الفرنسيين تمنعوا عن ذلك وبقيت بريطانية تحكم وحدها.

وكانت الإمبراطورية تكرر دائماً أنها ستخرج من مصر بعد ترتيب أوضاعها، غير أن حالة مختلفة تماماً استجدت في العام 1914، فقد كانت مصر لا تزال، اسمياً، تابعة للآستانة، حين أعلنت تركية تحالفها مع ألمانية في الحرب العالمية الأولى، فما كان من بريطانية إلا أن أعلنت استقلال مصر. وقامت القوات التركية، يساعدها الألمان، بهجوم من فلسطين أوصلها حتى قناة السويس. وتحولت مصر خلال الحرب العالمية الأولى إلى قاعدة أساسية للنشاط العسكري في غاليبولي وسالونيكا وفلسطين.

بعد الحرب الأولى وسقوط الإمبراطورية العثمانية، اتسع الدور البريطاني في الشرق الأدنى. وزاد أهمية مصر الإستراتيجية لدى الأميرالية أكثر من عامل جديد، بالإضافة إلى النفط، بينها ظهور الطائرة كوسيلة مدنية وعسكرية. وفي العام 1935 قامت إيطالية بحملتها الشهيرة على الحبشة فخشي البريطانيون على وضعهم في مصر وأخذوا يجددون شباب حاميتهم العسكرية هناك، ومعظمها آنذاك من المشاة والخيالة.

حين انضمت إيطالية، التي تتمركز قواتها في ليبية، إلى ألمانية مع سقوط فرنسة في العام 1940، كان للبريطانيين قوة مدرعة ضخمة (اللواء السابع) في مرسى مطروح عند الصحراء الغربية، أقدمت على عبور الحدود عند السلوم بعد ساعات من إعلان الحرب، يدعمها سربان مقاتلان وثلاثة أسراب قاذفة.

مع بداية العام الآتي هزم الجيش الإيطالي في ليبية، أولاً في معركة سيدي براني ثم في معركة كبيرة قرب بنغازي في شباط/ فبراير 1941. وفجأة خشي الألمان أن يقع المغرب العربي كله تحت سيطرة الحلفاء. فإذا استطاع البريطانيون اقتحام منطقة طرابلس الغرب، فإنهم سيتحالفون مع الفرنسيين الذين قد يعلنون آنذاك الاستقلال عن حكومة فيشي. ومثل هذا الوضع سيقلب كل شيء في حوض المتوسط برمته.

وأقدم الألمان، على عجلة، على إرسال قوة إلى طرابلس لدعم الإيطاليين في الدفاع عن الغرب الليبي. وكانت هذه القوة بقيادة جنرال يدعى أروين رومل الذي كان قد أثبت عبقرية فذة في قيادة كتيبة من الدبابات في فرنسة في العام السابق. وسوف تعرف هذه القوة فيما بعد باسم «الألوية الألمانية في إفريقية».

لم تتقدم القوة البريطانية في مصر وبرقة (التي انضمت إليها الآن قوات من أوسترالية وجنوب إفريقية ونيوزيلندا والهند وروديسية) نحو طرابلس، بل صرفت اهتمامها إلى إنقاذ اليونان وكريت من الهجوم الألماني. وفيما كانت غارقة في ذلك، وجه رومل ضربة صاعقة إلى القوة البريطانية الصغيرة المتمركزة في مرسى بريغا عند خليج سرت، وتقدم من هناك فرحاً وهو ينشر الفوضى في صفوف أعدائه، فحاصر طبرق، ووصل إلى الحدود المصرية في السلوم، فتوقف قليلاً بعدما كان قد استعاد كل ما خسره الإيطاليون في حملة الشتاء (راجع الفصل السابق).

حقق رومل معجزات عسكرية ستترك تأثيرها فيما بعد في الحملة برمتها. ذلك أنه أقدم على كل ما فعل متمرداً على أوامر القيادتين الألمانية والإيطالية، ومن ثَمَّ فها هو يثبت الآن أن التمرد على الأوامر يمكن أحياناً أن يلقى التصفيق. كذلك تجاهل كل التعليمات العسكرية التي أُعطيَها، خصوصاً من قيادة الأركان. وقد أثبت، على الأقل مدة من الزمن، أن ما لا يستطيع الإنسان أن يحققه بالمنطق، يمكن أن يحققه بالإرادة الصلبة وسرعة الحركة واستغلال ذهول الخصم. لكن هذا الأسلوب الذي سيكرره رومل فيما بعد، هو الذي سيؤدي في النهاية إلى هزيمته.

في أيار/ مايو وحزيران/ يونيو 1941، حاول البريطانيون عبثاً طرد رومل من الحدود، وإعادة الالتحام بحاميتهم المحاصرة في طبرق، كما أخفق رومل نفسه في حمل تلك القلعة على الاستسلام! في هذا الوقت حل الجنرال كلود أوكينلك محل الجنرال إرشيبالد ويفل ليكون قائداً أعلى للقوات البريطانية في الشرق الأوسط، وكان أول ما فعله إقامة دفاع قوي في العلمين، التلة التي تشرف على السهل المفتوح إلى الجنوب الغربي. وكان الموقع المرتفع التالي عند قرية العبد على بعد 15 ميلاً، أما المنطقة بين التلتين فكانت من المنخفضات والصخور الصعبة. وفي منتصف الطريق بين التلتين كانت تلة الرويسات، وإلى شمالها منبسط سهل العبور.

هذا كان، في العام 1941، إطار أكبر معركة دارت رحاها على أرض عربية خلال الحرب العالمية الثانية. لقد انهزم البريطانيون في اليونان وكريت ومالطة، وفقدوا برقة (بنغازي)، وها هو الجنرال أوكينلك يحاول استعادتها ومنع طبرق من السقوط.

وما أن بدأ العام المقبل حتى كانت القوات الألمانية ـ الإيطالية قد تعبت من جديد فيما وصلت قوات جديدة إلى طبرق. لكن كما اضطر البريطانيون في العام السابق إلى نقل قوات من الشرق الأوسط إلى اليونان ها هم الآن يضطرون إلى تحويل عدد كبير من الرجال إلى الشرق الأقصى، حيث سقطت سنغافورة، وأصبحت بورما مهددة، فما كان من رومل إلا أن استغل الموقف مرة أخرى وبنجاح.

ووقف الفريقان يستعدان لمواجهة أخرى: رومل يريد إسقاط طبرق، والبريطانيون يأملون بإقامة مطارات محصنة في برقة. وأخذت الأميرالية تلح على أوكينلك بالقيام بحملة هجومية، لكن الرجل ظل يتردد، إلى أن صدرت إليه الأوامر بأن يفعل ذلك مهما كانت النتائج. وحين اقترب موعد المعركة في أيار/مايو، كان الألمان يحققون النجاح في روسية وكان اليابانيون قد استولوا على بورما، وبدؤوا التقدم نحو سيلان (سري لانكا). عبثاً حاول أوكينلك إقناع القيادة بتأجيل الهجوم، فقد أرادت لندن أن تخفف الضغط عن حاميتها في مالطة القريبة بأي ثمن.

أخيراً سقطت طبرق أمام رومل في 21 حزيران/يونيو، وأخذ يتقدم باتجاه العلمين، حيث اشتعل القتال طوال شهر تموز/يوليو، فإذا عبر الألمان من هنا ماذا يحدث للشرق الأوسط الذي دفع إليه البريطانيون ما استطاعوا من قوات منذ العام1940؟ لقد تقهقروا الآن حتى الدلتا من جديد، وأسر رومل الكثير من رجالهم، وفيما دخلت لندن السنة الرابعة من الحرب، سرت إشاعات بأن الأميرالية قد تضطر إلى إخلاء مصر نفسها.

لا شك في أن هذه النتائج قد أثرت أيضاً في معنويات «جيش الصحراء»! وفي لندن كان ونستون تشرشل يتساءل لماذا لم تعرف القوات البريطانية سوى الكارثة في الشرقين الأقصى والأوسط؟ لا بد إذاً من تغيير في القيادة. أسماء كثيرة عرضت وفي النهاية تلقى مونتغمري برقية من وزارة الحربية تطلب منه السفر إلى مصر لقيادة الجيش الثامن، أو اللواء الثامن! في الخامسة من صباح 13 آب/ أغسطس غادر مونتغمري القاهرة باتجاه الصحراء، كل شيء سوف يتغير بعد الآن.

الدفاع عن مصر – قرر مونتغمري – سوف يكون في العلمين لا خلفها. لن يكون هناك انسحاب أو تراجع، ومقر القيادة نفسه يجب أن يكون أكثر ارتياحاً، وأن ينقل إلى الساحل لكي يكون أقرب إلى القيادة الجوية. إن أوامره واضحة: دمّر رومل! لكنه لن يتسرع. إذا قرر رومل الهجوم خلال أسبوع ستقع كارثة، أما خلال أسبوعين أو أكثر فثمة مكان للحظ!

على الجانب الآخر كان ثعلب الصحراء منهمكاً في حفر الخنادق وزرع الألغام، وكانت تحركاته تشير إلى أنه يعد لهجوم وشيك، ربما حين يكون القمر مكتملاً في 26 آب/أغسطس. وكانت القيادة البريطانية في الصحراء تعتقد أن رومل سيلتف من الخلف. لكن ها هو مونتغمري يراجع الخرائط والمعطيات، ويقرر أن ذلك غير وارد، كذلك ينتبه إلى أهمية تل الرويسات ومنطقة الماحلفا، ويفكر في طلب تعزيزات من القوات المتمركزة في الدلتا: لماذا تعريض حامية العلمين للخطر، في حين يستريح الآخرون على مقربة منها؟

خلال الأيام العشرة الآتية كان الجيش الثامن يُدّعم بالرجال والمدرعات، كما أخذ مونتغمري يضلل الثعلب الشهير، بالتظاهر وكأنه يعد لهجوم من الجنوب، ثم وضعت كتيبتان من الدبابات المزيفة في منطقة الحميمات، ونُشِرت ألغام مزيفة ومواقع مشاة مزيفة أيضاً. كل هذه الترتيبات تمت نحو 25 آب/أغسطس. إذاً، حين يكتمل القمر، يكون الجيش الثامن في وضع أفضل بكثير. لكن القمر صار بدراً ولا هجوم. وقد شعر الخداعون المحترفون بشيء من الارتياح: لقد نجحوا في إخافة رومل.

• • •

بعد سقوط طبرق بين يديه في 21 حزيران/ يونيو شعر رومل، الذي رقي إلى رتبة فيلد مارشال، أن بإمكانه صرف النظر عن خطته القاضية بالتوقف عند الحدود، إذ بإمكانه بعدما استولى على كل تلك المؤن في طبرق، أن يستغل إلى أقصى حد تلك الفوضى التي وقع فيها الإيطاليون، ومن ثَمَّ فهو سيتقدم نحو الإسكندرية والقاهرة، قبل أن يتمكنوا من جمع صفوفهم.

كان رومل، - رغم أنه قائد للجيش الألماني ـ الإيطالي المدرع في إفريقية - خاضعاً لأوامر القيادة الإيطالية العليا التي يرأسها المارشال كالفيرو، والتي ألحق بها الجنرال فون رنتلن مندوباً للقيادة الألمانية. كذلك كان يقيم في إيطالية الفيلد مارشال كسرلينغ الذي كان رومل نظرياً من مرؤوسيه، وكان يشكو دائماً من تضارب الأوامر بين الإيطاليين والألمان، إلا أنه في الواقع كان يستغل ذلك من أجل استقلاليته.

عارض الإيطاليون وكسرلينغ معاً فكرة رومل بالهجوم مباشرة على الإسكندرية والقاهرة. فقد شعرت القيادتان أن قواته لا تستطيع التقدم أكثر من 300 ميل بما تملكه من مقومات، كما أنه ما لم تسقط الحامية البريطانية في مالطة تماماً، فإن صمود القوة الألمانية في مصر لن يكون مضموناً. وكان رئيس أركان العمليات في قوة رومل، الكولونيل سيغفريد ويستفال، يشارك القيادتين هذا الحذر.

لم ير رومل في هذا الحذر أكثر من علامات جبن وخوف. إن ألمانية أمام فرحتها الكبرى للاستيلاء على المنطقة الرئيسة في الشرق الأوسط، والالتقاء بالقوات الألمانية شمال القفقاز، ولذا لا بد من تجاهل تلك التحذيرات المتشائمة عن صعوبات الدعم الجوي والمؤن، كما فعل قبل ذلك مرتين حين اندفع من العقيلة (وردت العجيلة، بلفظها المصري في فصول سابقة)، خطط أنه سيصل إلى الدلتا قبل أن يدرك البريطانيون ذلك، وسوف يرى غنيمةً أمامه، كل ما يملكون في قاعدتهم الكبرى ومطاراتها. وبعد ذلك لن يعود بإمكان جيشهم التحرك في شرق المتوسط بحرية، وسوف يكون بإمكانه آنذاك التفوق على صعوبة التزود بالمؤن من إيطالية.

كان رومل بحاجة إلى موافقة رجل واحد: هتلر! وقد سارع هذا إلى تقديمها، فيما شد رومل الرحال باتجاه النيل.

أخفق رومل في الهجوم الأول الذي استنفد فيه كل ما غنمه في طبرق. وفي نهاية تموز/ يوليو حين توقف الفريقان لشيء من الراحة كان وضع رومل التمويني بدأ يسوء. ذلك أن طبرق - بوصفها ميناء - لم تكن تستطيع أن تستقبل أكثر من 600 طن في اليوم، أي جزء ضئيل جداً من احتياجاته، كما كانت معرضة دوماً للغارات الجوية. كذلك كان

لابد له من استخدام بنغازي وطرابلس. وحاول جاهداً، لكن عبثاً، استخدام الخط الحديدي بين طبرق والجبهة. وكانت رحلة الشاحنات من طرابلس وإليها تستغرق 12 يوماً. ومن بنغازي سبعة. وكان رومل يفتقر إلى وسائل النقل، لأن معظمها استولى عليه البريطانيون، أما العدد الكبير مما بقي فكان يفتقر إلى قطع الغيار. والأمر الذي زاد الأمور سوءاً أن جميع التعزيزات التي أرسلت إليه قد وصلت جواً، من دون آليات.

كان الافتقار إلى العربات والمؤن أكثر ما يقلق رومل. وقد ازداد قلقه مع ازدياد الغارات البريطانية على قوافل التموين في البحر والبر. ولم يتلق طيلة شهر تموز/ يوليو سوى 6 طن، أي خمس ما كان يريد. وفي الأسابيع الثلاثة الأولى من آب/ أغسطس استهلك «الطابور الإفريقي المدرع» ضعف ما نقل عبر المتوسط في تلك المرحلة مع أن المعارك التي وقعت في المدة نفسها لم تكن ذات شأن. وزاد في حنق رومل أن الإيطاليين أرسلوا إلى ليبية كتيبة بيستويا ومعها نحو 400 عربة، في حين لم يكن يملك على الجبهة أكثر من 60 عربة.

في آب/ أغسطس أيضاً وصلت من إيطالية 30 سفينة شحن، و14 مركبة، وست غواصات، فأغرقت منها 4 سفن بنار الغواصات، و3 بالغارات الجوية، ووصلت إلى طبرق 14 سفينة، و13 مركباً، وغواصتان، وإلى بنغازي 7 سفن، وغواصتان، وسفينة واحدة، وغواصة إلى طرابلس، وغواصة إلى درنة. ومن أصل 3.720 طناً من الذخيرة فقد 1660 طناً. ومن أصل 15.500 طن من الوقود فقد 2700، كذلك فقد 2120 طناً من المؤن من أصل 6.370، و43 مدفعاً من 220، و367 عربة من أصل 1147. ووصلت 39 دبابة كاملة.

بالإضافة إلى كل هذه الأسباب المقلقة، أضيف سبب آخر! المرض! إن معظم الضباط والجنود في الطابور المدرع الإفريقي يقاتلون منذ عامين ونصف العام من دون انقطاع. وقد بدأت تظهر عليهم ـ وعليه ـ علامات التعب والإعياء، فبدأ يصاب بنوبات إغماء متكررة. وكانت آلام عنيفة تقصف برئيس أركانه الجنرال كونر، في حين أصيب الكولونيل ويستفال بالكبد.

إذاً، لم تكن القوات البريطانية وحدها الآن في وضع مقلق. لكن رومل شعر أن التعزيزات القادمة من أميركة وبريطانية قد تصل إلى الجبهة في أي وقت. وإذا ما برهنت زيارة تشرشل إلى مصر على شيء، فقد برهنت على مدى الأهمية التي تعطيها لندن للبلد. وسرعان ما توافرت لدى الاستخبارات الألمانية معلومات تفيد أن 100 ألف طن من المعدات والمؤن سوف تصل إلى السويس قبل بداية أيلول سبتمبر، ولذا كان مهماً لرومل أن يوجه ضربة أخرى، قبل أن يستفيد الجيش الثامن من الوضع الجديد. والوقت الأكثر ملاءمة لذلك هو بدر السادس والعشرين.

لم يكن ذلك الاعتبار الوحيد أمام القائد الألماني من أجل القيام بضربة مبكرة. إذ مع مرور كل يوم كان يلحظ تعزيزاً جديداً في الدفاعات البريطانية. لكن المؤن التي طلبها من كالفيرو وكسرلينغ لم تصل بعد. ولذا قرر رومل أن يكرر تماماً ما فعله في طبرق في 27 أيار/مايو: اندفاع صاعق خلال الليل حول الجيش الثامن من الجهة الجنوبية شمال الحميمات، بحيث يُطوّقه تماماً، وتقطع عنه الإمدادات كلياً، وهكذا تُشل المطارات البريطانية، ويقف الألمان على مشارف الإسكندرية، ولا يعود أمامهم سوى القاهرة وما خلفها.

كان لا بد من ثلاثة أشياء لتأمين نجاح هذه الخطة: المفاجأة والسرعة، والتموين الكافي لخوض معركة متحركة. ومن أجل أن يؤمن عنصر المفاجأة، كان ضرورياً أن يخبئ رومل حتى اللحظة الأخيرة تنقل قواته المتحركة. ولذا قضت الخطة بأن تنقل الدبابات خلال الليل إلى مخابئ على مدى أربع ليال، أي الربع كل ليلة، على أن يرافق ذلك بهجوم تمويهي جانبي عند تل الرويسات! لكن رومل كان لا يزال ينتظر بفارغ الصبر وصول مادة بالغة الحيوية: النفط! وفي 30 آب/ أغسطس، أبلغه كسرلينغ وكافاليرو معاً أن الوقود سيكون لديه خلال ساعات.

مضت خمسة أيام على اكتمال القمر، وكان مقرراً أن يظهر الآن قبل 20 دقيقة من انتصاف الليل. وقبل ساعتين من ذلك بدأت طوابير رومل في التقدم نحو المنطقة الواقعة بين قرية العبد وجبل الكلاخ، لكن سرعان ما ذهلوا حين بدأت بعد قليل غارات جوية عنيفة على مراكز مستودعاتهم شمال غرب الكلاخ، التي كان السلاح الجوي

البريطاني قد حدد موقعها الليلة السابقة، وهكذا بدأت الشكوك الأولى حول كون الهجوم مفاجئاً حقاً. وما إن طلع القمر حتى بدأت التقارير من الوحدات المتقدمة تتحدث عن حركة عسكرية واسعة. وإذ شرع الألمان في نزع الألغام من أمامهم انهالت النار عليهم من كل مكان، إلا أنهم استمروا في الاندفاع لشق طريقهم شمال الحميمات. وبدا حجم الهجوم واضحاً الآن، فطلبت القوات الأمامية من السلاح الجوي الإغارة على المنطقة بين حقل الألغام وجبل الكلاخ، فكانت الحرائق التي يشعلها القصف الجوي تضيء المكان، وتسهل عمليات القصف البري.

كان الطابور الألماني المدرع، أو جيش «البانزر» يتوقع عبوراً سهلاً، لا يعيقه أكثر من نزع بعض الألغام هنا وهناك ـ وليس كل هذه الغابة ـ منها. وراح رومل يتصل هاتفياً المرة بعد الأخرى، لكن جواب القوات الأمامية ظل واحداً، وهو أن المقاومة ثقيلة، والألغام كثيرة وأن الخسائر فادحة. وفي الرابعة والنصف؟ أي قبل نصف ساعة فقط من اندلاع الفجر، استطاع الألمان أن يشقوا طريقاً لهم شمال الحميمات، إذ عبرت نحو 60 دبابة حقل الألغام الأول، وبدأت تضغط على الحقل الثاني، فأخذت القوات البريطانية تتراجع قليلاً قبل أن تتعرض للنار المواجهة.

في الثامنة صباحاً كان رومل في جبل الكلاخ، حيث تلقى تقريراً قاتماً عن الهجوم الذي بَنَى عليه كل آماله. إذ ما إن اجتازت قواته الحقول التي زرعتها بنفسها، حتى واجهت ما أسماه الألمان «حزاماً بريطانيةً هائلاً من الألغام، مليئاً بالأفخاخ، ومغطىً بالنيران الثقيلة». وحدثت إصابات كثيرة، كان بينها الجنرال فيرينغ قائد الطابور الإفريقي الذي أصيب بجروح، كما قتل الجنرال فون بسمارت قائد كتيبة البانزر.

لا شيء توافر من تلك الشروط الثلاثة: المفاجأة، السرعة، التموين. وفكر رومل جدياً في التخلي عن العملية كلها، لكنه رأى أن الأمر يتوقف الآن على أداء الطابور الإفريقي الذي عين قائداً له رئيس الأركان، الكولونيل بايرلين.

مقابل التقرير القاتم الذي تلقاه رومل، تلقى مونتغمري تقريراً مبهجاً! في الساعة ونصف الساعة الآتية، سيكون اندفاع الطابور الإفريقي من الحميمات، الحدث الرئيس: مئة دبابة تتقدم، العواصف الرملية تملأ المنطقة، الالتحام مستمر يوماً

آخر، وكذلك التقدم الألماني المحدود. في هذه الأثناء يجتمع القائد العام، الجنرال ألكسندر، مع مونتغمري. الأمر اليومي واضح: لا انسحاب ولا استسلام. والقرار الوحيد الذي يتخذانه هو نقل الفرقة المدرعة الثامنة، من شرق القاهرة، إلى غرب النيل، قرب الأهرام. وطلب مونتغمري من الطيران أن يقصف التجمعات الألمانية تلك الليلة في منطقة راغيل. وإذ سره النقص في إدارة النقل لدى رومل، فقد أصدر الأوامر بجعل العربات الألمانية هدفاً رئيساً. وتكبدت قوات الاستطلاع الألمانية خسائر كبرى هي أيضاً، في حين جلس رومل ينتظر أطنان النفط التي وعده بها كالفيرو، والتي لم تكن قد وصلت بعد. ويقول رومل في مذكراته: إنه بالإضافة إلى ذلك كله أعاق البريطانيون خطوط التموين الألمانية، ولم تكن هناك أي قوات بريطانية إلى جانب حقول الألغام ذلك اليوم أو حتى اليومين المقبلين. ويقول رومل - أيضاً -: إنه بسبب أزمة التموين، قرر أن يحصر الهجوم في اليوم الآتي بفرقة البانزر الخامسة عشرة، وأن يكون الهدف فقط الاستيلاء على الماحلفا.

كان ذلك قراراً غريباً في رأي الخبراء العسكريين: إما أن رومل أساء تقدير الوضع، أو أنه أراد الوصول إلى حل جزئي، بدلاً من الهجوم الشامل. وعندما درس مونتغمري الموقف في أول أيلول/سبتمبر، كان مقتنعاً بأنه لم يعد ثمة خطر من هجوم كبير شرق الماحلفا. لكن ما إن حل المساء، حتى عاود الألمان محاولتهم من جديد.

• • •

بعد شهر تقريباً من الكر والفر، بدا أن ثعلب الصحراء وأفضل جنرالات هتلر يقوم هذه المرة في مغامرة يائسة. كما بدا أن البريطانيين مع مونتغمري، يرون أول مرة تباشير الانتصار. ها هي معركة الماحلفا تشارف على نهايتها، لكي يبدأ الألمان الجولة الثانية من القتال، وهم - تقريباً - فاقدو الأمل. وقد زاد في المأساة أن صحة رومل تدهورت أكثر فأكثر، فيما تراجع الألمان والإيطاليون إلى الخط البريطاني القديم في الجنوب. وأظهر طبيبه الخاص، البروفسور هورستر، أن على رومل أن يذهب إلى أوروبة لكي يمضي بضع أسابيع على الأقل في الاستشفاء. وهكذا بدأت الاستعدادات لتعيين خلف مؤقت له، الجنرال شترومي البالغ السادسة والخمسين، والقائد السابق

لفرقة البانزر السابعة، الذي خدم أيضاً على الجبهة الروسية. ولم يكن أمام رومل سوى أسبوعين، يعيد خلالهما تنظيم جيشه، من أجل مواجهة هجوم مونتغمري الذي كان يعتقد أنه سيبدأ بين أربعة أو ستة أسابيع. وقد نقل الآن فرقة البانزر الخامسة عشرة إلى الساحل أولاً من أجل استراحة أسبوع، ثم إلى منطقة سيدي عبد الرحمن، بينما توزعت بقية القوات الألمانية والإيطالية هنا وهناك.

كانت خطة رومل في السابق تقضي بحمل البريطانيين على خوض معارك متحركة، لكنه من الواقعية بحيث يعرف أن هذا الأمر لم يعد نافعاً الآن. ذلك أن مهارته في هذا المضمار انهارت أمام التفوق العددي في الآليات الذي يملكه البريطانيون. فقد كان الجيش الثامن يتلقى إضافات هائلة من القوة الآلية بلا انقطاع، في حين كانت التعزيزات التي يتلقاها رومل خالية من الآليات، الأمر الذي جعلها، حسب تعبيره، «صالحة من أجل لاشيء في الصحراء العارية» وبسبب تفوق البريطانيين الهائل في القوة الجوية، وافتقار رومل الدائم إلى النفط، رأى نفسه مرغماً على وقف دفاعه عند خط جامد محصن، وجعل قوة المشاة تستغل الألغام إلى أقصى الحدود.

هذا النوع من القتال، في رأي رومل، سوف يمكن البريطانيين من استخدام المدفعية إلى أقصى حد، وكذلك من استغلال مهارة فرق المشاة الأوسترالية والنيوزيلندية، التي كان ثعلب الصحراء معجباً بها أيما إعجاب. إنه الآن يريد الحيلولة دون فتح أي ثغرة في دفاعاته بأي ثمن. وقد كان في ظنه أن الجيش الثامن سوف يشن هجوماً متعدد الأضلاع من أجل تحقيق هذه الثغرة. ومن أجل الحيلولة دون ذلك؛ اتخذ خطوات دفاعية كثيرة، أولها ضم القوات الألمانية والإيطالية وقيادتهما.

قبل أن يسافر في رحلته الصحية الإرغامية، لم يترك رومل تفصيلاً واحداً من دون أن يتوقف عنده مع مساعديه. وكان أكثر ضباطه يعانون من أمراض مختلفة أيضاً، الأمر الذي اضطره إلى استبدالهم. كذلك لم تكن كميات النفط التي طلبها قد وصلت بعد، حين غادر درنة في 23 أيلول/ سبتمبر. وفي اليوم الآتي التقى الدوتشي موسوليني، وعرض عليه مرة أخرى أهمية وصول المؤن، وحالة وسائل النقل. وبعد ذلك بأيام التقى هتلر وغورينغ، وأبلغهما بالصعوبات التي يواجهها، لكنه شعر بأنهما يعتقدان، مثل موسوليني، أنه يبالغ في الأمر.

كان رومل قد تخطى الصعوبات أو الاستحالات اللوجستية مرات عديدة من قبل، وقد اعتقد هتلر أنَّ بإمكانه أن يتخطاها الآن مرة أخرى! وذهب رومل إلى جبال سيميرنغ في النمسا للاستشفاء وهو منقبض النفس. وهناك (حسب مذكراته) راح يفكر في التأثير الذي سيكون لاشتراك دولة صناعية مثل أميركة في الحرب في الحيلولة دون تحقيق الانتصار الألماني. كان عقله مع طابور البانزر في الصحراء، والتقارير التي تلقاها من شترومي وويستفال لم تطمئنه إطلاقاً. إذ على الرغم من أن العمل في حقول الألغام كان يسير على ما يرام، فإن استعدادات الجيش الثامن كانت أيضاً تتقدم. وكان البريطانيون يغيرون على طبرق كل ليلة، ويلحقون الخسائر والأضرار الكبرى بعمليات التموين. ومع أن الحالة التموينية تحسنت قليلاً، إلا أنها ظلت دون الحد الأدنى من مطلب رومل.

وعلى الجبهة أثّر غياب رومل في معنويات الطابور المدرع الإفريقي. وقد تبخرت الآن الأحلام بالسيطرة على مصر، حتى لدى أكثر الضباط تفاؤلاً. وفيما ساءت الحالة الصحية تحول تكاثر الذباب إلى أزمة حقيقية. وسادت حالة من التشاؤم في صفوف الإيطاليين، الذين أخذوا يطالبون بإنهاء الحرب، فانتقل الخلاف بينهم وبين الألمان من القمة إلى القاعدة. لكن هذا لم يَحُلْ دون إقامة خط دفاعي جديد خلف الخط القديم.

كان الثالث والعشرون من تشرين الأول/أكتوبر يوماً مثل باقي الأيام، بالنسبة إلى طابور البانزر الذي استعد لليلة هادئة أخرى، إلا أنه في التاسعة إلا ثلثا، اشتعلت الجبهة مرة واحدة وانهالت القذائف على المدفعية، على المشاة، على الرمال.

• • •

كان لدى الجانب البريطاني 426 مدفعاً بعيد المدى، و48 متوسطاً. الألمان كان لديهم 232 مدفعاً بعيد المدى، و40 متوسطاً، و24 مدفعاً ثقيلاً. وكان بإمكان المدافع المتوسطة البريطانية أن تطال 80 موقعاً مدفعياً ألمانيةً تقريباً، كما كانت هذه تطلق 96 قذيفة كل دقيقتين. وكان الرد الألماني ضعيفاً نسبياً، وظل ضعيفاً حتى الرابعة

صباحاً. وفي ضوء القمر تقدَّم المشاة البريطانيون وكأنهم في مناورة. لكن هذه السهولة ما لبثت أن توقفت حين بلغوا حقل الألغام الثاني، فأخذ الرصاص والانفجارات تحيق بهم من كل مكان.

الآن كان همُّ البريطانيين تأمين جسر عبر حقول الألغام الألمانية قبل الفجر، ومساعدة الدبابات على الوصول إليه. كذلك كان عليهم، خلال الساعات الثلاث التي تسبق طلوع الضوء، أن يحفروا الخنادق لمواجهة أي هجوم بالمدافع المضادة للدروع، في حين تتحرك دباباتهم في تشكيلات صغيرة من أجل تأمين الجسر بأي ثمن. ولم يكن الاستسلام مسموحاً إلا للجرحى.

مع حلول المساء سمح للجنود بتناول العشاء في السابعة، لكن هؤلاء كانوا أكثر اغتباطا: بأنهم استطاعوا أن يمدوا سيقانهم قليلاً بعد الساعات الطويلة في الخنادق. إلا أن موعد الجولة المقبلة لم يكن بعيداً. وقد وصفه الكابتن غرانت موراي بالكلمات الآتية:

«بدأت عقارب ساعتي وكأنها تزحف حول نفسها، إذ جلسنا نصغي ونراقب. أمامنا كان كل شيء هادئاً، باستثناء نور خافت وبعض أصوات الرشاشات. وإذ اقتربت ساعة الصفر استدرت وتطلعت عبر خطوطنا في الخلف. وفجأة صار الأفق كله زهري اللون، ولثانية أو ثانيتين كان هناك صمت متجمد، ثم هبط علينا أزيز مدافع الجيش الثامن، مثل جدار من الصوت جعل الأرض كلها تهتز. ومن خلال هذا الجدار أخذنا نميز صوت القذائف وقرقعة الرشاشات، وأخيراً صوت القرب الاسكتلندية. ثم طالعنا مشهد سيظل حياً في ذاكرتنا إلى الأبد: صف خلف صف من رجال يعتمرون الخوذ، ويحملون البنادق التي تلمع حرابها في ضوء القمر... لكن فوق كل شيء عويل القرب، وفرقة الموسيقى تتقدم نحو صفوف الأعداء التي لفها الدخان. وكانت آخر مرة شاهدنا رجالها وهم يقتحمون الدخان، ونيران العدو تتساقط بينهم».

ما هو إلا قليل حتى بدأ الرجال يتساقطون. وقد سقط القرَّاب دنكان ماكنتاير وهو يعزف. وعمت الفوضى وتباطأت خطى المهاجمين. وفي الجانب الآخر كان

شترومي يتأكد من أن هذا القصف المدفعي لم يعرفه أحد منذ العام 1918، وها هو الآن يدمر شبكة الاتصالات الألمانية كلها. وبسبب خشية شترومي على ذخيرته، لم يصدر الأوامر بردٍّ فوري، وهو أمر اعتبره رومل فيما بعد خطأً فادحاً، إذ تفادت التجمعات البريطانية القصف. وحين فتحت المدفعية الألمانية نيرانها أخيراً، أصبح أثرها ضعيفاً، بعدما تمكن البريطانيون من التمركز في الدفاعات الألمانية التي استولوا عليها.

إنه اليوم الثاني من المعركة الآن، الرابع والعشرون من تشرين الثاني/ أكتوبر. وها هو رومل يقرُّ فيما بعد بأن قصف الجيش الثامن كان «دقيقاً جداً» وأن الخسائر جسيمة بين قواته، وأن معظم الأسلحة الثقيلة لدى المشاة الألمان قد دمرت. وقيل يومها إن عدداً كبيراً من الإيطاليين فر إلى الصفوف الخلفية بسبب شدة القصف. ووسط هذا الجو العنيف قرر شترومي أن يرى بنفسه ماذا يحدث، ولم يكن يرافقه في هذه المهمة سوى الكولونيل بوكنغ وسائقه الرقيب وولف، ورفض أن يأخذ معه عربة مواكبة أو سيارة اتصال، بحجة أنه لن يذهب بعيداً. أما الواقع فإنه ذهب حتى الجبهة، حيث أطلقت عليه النار من الأوستراليين، فقتل الكولونيل بوكنغ، بينما استدار الرقيب وولف بسرعة قصوى عائداً، وكان شترومي يتعلق بالسيارة من حافتها، حين أصيب بنوبة قلبية وسقط. ولم يعرف وولف ماذا حدث إلا حين أبطأ قليلاً، لكن العثور على جثة شترومي تم فقط بعد 24 ساعة.

صباح السادس والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر جلس مونتغمري يدرس الخطوات الآتية: على الرغم من أن الفيلق الثلاثين قد حقق معظم أهدافه، فإن خسائره بلغت 4.500 قتيل بالإضافة إلى 500 في الفيلق العاشر، و1000 في الثالث عشر. ولم تكن هذه أرقام فائقة نسبياً، لكن أيضاً لم تكن هناك تعزيزات متوافرة للفيلق الجنوب إفريقي أو النيوزيلندي الذي مني بـ 800 إصابة، أي ثلث قوته، فيما فقدت الفرقة الاسكتلندية 2.100 قتيل. لكن تقييم خسائر الألمان كان صعباً. فقد أسر البريطانيون نحو 2000 عسكري بينهم 600 ألماني. أما التقدير العام لخسائر الألمان والإيطاليين فكان 32 ألف ألماني، و29 ألف إيطالي. في الدبابات 250. و580.

في المدافع الميدانية 140، و200. في مدافع 88 ملليمتراً 50، و40، وفي الأسلحة الأخرى المضادة للدروع 400، و320. كانت هذه أرقاماً مرتفعة حقاً، وإذا صحت كلها فهذا يعني أنه لم يعد أمام الجيش الثامن الكثير من القتال.

الأنباء السيئة أعادت رومل إلى الجبهة من مصحه النمساوي. هذه المرة كان هتلر نفسه هو الذي اتصل به عند منتصف الليل، وطلب منه العودة فوراً، فطار إلى روما في الصباح الباكر، حيث تلقى تقريراً قاتماً عن كل شيء، خصوصاً عن المؤونة النفطية: ثلاث حصص في اليوم بدلاً من الثلاثين التي طلبها كحد أدنى! كان ذلك كافياً لإعطائه صورة واضحة عن سير المعركة ومستقبلها. وحين وصل إلى أرض المعركة فجر اليوم الآتي أعطاه ويستفال صورة أكثر واقعية وأشد قتوماً: لقد حال النقص في النفط دون أي حركة ذات مغزى. ولم يكن هناك أي شيء ممكن، سوى بعض الهجمات المضادة. والغارات الجوية والميدانية البريطانية التي لم تتوقف في الليل أو النهار، أثرت كثيراً في معنويات الجنود.

قرر رومل أن أول ما يجب أن يفعله هو طرد البريطانيين من خط دفاعه الأول خلال الأيام القليلة الآتية. ومن أجل ذلك اشترك في المعركة حرس القيادة الألمانية، المعروف ببأسه ومهارته. لكن الذي كان يلعب لعبة المخادعة العسكرية الآن مونتغمري وليس رومل. وفيما قلب القائد البريطاني كل إستراتيجيته مع حلول الثامن والعشرين من تشرين الثاني/أكتوبر، كان رومل لا يزال يعتقد خطأً أن مونتغمري سيهاجم من الشمال، وهكذا نقل معظم قواته من الجنوب. إلا أن نقطة الهجوم الحقيقية عرفت تلك الليلة حين بدأ الأوستراليون هجومهم. وكان ذلك هجوماً بعيد المطامح. لكن الذي أخفق الجانبان - مرة أخرى - في تقديره، هو قراءة أفكار بعضهما بعضاً. ففي حين أخذ رومل يفكر جدياً في الانسحاب، كان البريطانيون يعيدون النظر في نتائج المعارك الرهيبة المستمرة منذ ست ليال وخمسة أيام بلا جدوى سوى أكوام الخسائر البشرية. وها هي الإشاعات تنتشر عن انسحاب النيوزيلنديين من الخطوط الأمامية، فتعود إلى الذاكرة الإخفاقات الأولى، والحرب العالمية الأولى أيضاً.

وتلك الليلة أرسل رئيس الوزراء إلى القائد العام الجنرال ألكسندر برقية يعرب فيها عن قلقه صباح التاسع والعشرين. وبدا تشرشل متضايقاً الآن من اختيار مونتغمري، واتهمه بخوض المعركة من دون حماس. إلا أن مونتغمري الذي أبلغ بمزاج الرجل الضخم في لندن، قرر المضي في خططه العسكرية دون تغيير، شن هجوماً ضد الألمان في أقوى دفاعاتهم عند الساحل. لكنه ما لبث أن تراجع حين أبلغ بالتطورات الأخرى، بينها عودة رومل إلى قيادته.

الآن بدأ البريطانيون الاستعداد «للهجوم الكبير» في الأول من تشرين الثاني/ نوفمبر. إنه الحل الحاسم الوحيد في رأي مونتغمري، الذي حدد موعداً في الساعة الواحدة إلا خمس دقائق تلك الليلة. وقد تقرَّر أن تحقق فرقة المشاة أهدافها قبل الرابعة إلا ربعاً، ثم تكون مهلة لساعتين، تتقدم بعدها الوحدة المدرعة نحو 2000 ياردة، باتجاه منطقة سيدي عبد الرحمن، وفي السابعة إلا الربع يتقدم طابور مدرع آخر، فيما يركز السلاح الجوي غاراته على فرقة البانزر الحادية والعشرين والفرقة الخفيفة التسعين.

تلك الليلة قرر جيش البانزر أن يغير الساعة من الوقت الصيفي في ألمانية إلى التوقيت الأوروبي العام. إلا أن ذلك لم يساعد كثيراً في تخفيف الفوضى التي عمت حين راحت الغارات تدك مقدمة الطابور الإفريقي، الذي أصيب قائده فون توما بجروح طفيفة. ولم يتمكن الألمان من إصلاح شبكة الاتصالات إلا في الخامسة والنصف صباحاً، ومن ثمَّ فإن رومل لم يستطع أن يبلغ أوامره إلى القيادة الرئيسة. وخيل للألمان في البداية أن الهجوم الرئيس يتم من الشمال، لكنهم تبينوا نحو الرابعة صباحاً أنه في الجنوب. أما مونتغمري فكان عالماً «بالفوضى التي دبت في الجانب الآخر من التلة» وقد غادر مقره في السابعة والنصف صباحاً، ليتوجه إلى مقر القيادة التكتيكية، حيث قدمت له معلومات مشجعة. وقد وصف مراسل حربي الوضع على الجبهة آنذاك كالآتي:

«تركنا مواقعنا، وعبرنا حقول الألغام في خط واحد. لم تطلق أي طلقة علينا. والإعاقة الوحيدة لتقدمنا حدثت فقط حين اصطدمت السيارة بمدفع من عيار

88 ملليمتراً. كان موقعاً مليئاً بجثث الألمان. وكان العدو مذهولاً، بحيث لم يقم بأي حركة ونحن نتقدم، أو ربما القطاع الإيطالي ظن أننا ألمان، والقطاع الألماني ظن أننا إيطاليون. لقد لوحوا لنا بالأعلام الألمانية، وكنا نقول لهم بالألمانية: تأهبوا! أو أي شيء آخر يمكننا من عبور صفوفهم. وحتى حين طلع الضوء تماماً، وأيقنوا أنهم أخطؤوا فإنهم لم يصدقوا أعينهم. مررنا أحياناً على بعد 10 ياردات فقط من مدفعيتهم. وأحياناً أخرى مررنا أمام ألمان يحملون بنادقهم، لكنهم لحسن الحظ أخفقوا في إطلاقها. وكان أحدهم يكتشف أننا بريطانيون، فيهرع ليخبر رفيقه، ثم يقف الاثنان مذهولين لا يصدقان.

«بعد قليل مررنا بإيطالي ينام في سريره. وقد عرفنا من كثرة الشاحنات والعتاد التي حوله أنه في مقر قيادي، أيقظناه فقفز أمتاراً من الخوف، ثم رمينا قنبلة يدوية في الشاحنة قربه فأحرقتها. تقدمنا أكثر فإذا نحن أمام مقر أكبر، فأيقظنا أهله بالقنابل التي أسقطناها على الشاحنات».

كان هم مونتغمري طبعاً، أن يستغل إلى أقصى الحدود الضعف الذي أظهره الإيطاليون والألمان في الجزء الجنوبي من الجهة، إلا أن تلاحماً هائلاً جعل الدبابات تتحرك في مواقعها:

«لقد أرغت وأزبدت قرب سيدي عبد الرحمن». الدبابات تشتبك مع الدبابات، والمدافع المضادة للدروع تدك الدروع. من الشمال ومن الجنوب ومن الغرب. إنه أطول اشتباك مدرع في المعركة كلها. وقد ضحى رومل بمواقعه المضادة للطائرات، لكي يشرك مدافعه في معركة الدروع، إلا أنها ما لبثت أن دمرت. ثم تهاوت الدبابات الإيطالية فيها. ومع حلول الظهيرة أيقن رومل أن هجومه المضاد الأول قد أخفق، فأمر بهجوم ثانٍ في الساعة الثانية. لكن الهجمات الآتية لقيت المصير نفسه. وبعد الظهر كان عدد الدبابات الصالحة لدى الطابور الإفريقي قد انخفض إلى 35، فاتخذ رومل القرار المرير بالانسحاب إلى فوقا فوكا على بعد 60 ميلاً، بينما يستمر الفيلق العشرون في مقاومة الجيش الثامن، ويعمل على الانسحاب ببطء. وأبرق رومل بقراره إلى هتلر قائلاً إنه لم يعد بإمكانه أن يصد الاندفاع البريطاني المقرر لليوم المقبل. وكما يفعل كل ليلة، جلس وكتب إلى زوجته الرسالة الآتية:

3تشرين الثاني/ نوفمبر 1942

عزيزتي لو

المعركة ضدنا ثقيلة جداً. إن ثقل العدو، بكل بساطة، يسحقنا. لقد قمت بمحاولة لإنقاذ جزء من الجيش، ولست أدري إن كانت ستنجح. إنني أمضي الليل مفتوح العينين، أفكر في طريقة أنقذ بها قواتي المسكينة من هذا العذاب. إن الموتى سعداء الحظ، فقد انتهى كل شيء بالنسبة إليهم. إنني أفكر فيك بكل جوارحي، وقد تسير الأمور على ما يرام وأشاهدك ثانية.

• • •

استدعى الفيلد مارشال مونتغمري أركانه إلى اجتماع خاص في التاسعة من صباح 3 تشرين الثاني/ نوفمبر. إنه شبه واثق الآن من أن رومل بلغ النفس الأخير، وتطلع إلى القطاع الجنوبي من الجبهة من أجل الاقتحام. وخلال الاجتماع وصلت إلى الضباط تقارير عن انفجارات على الجبهة حيث يقاتل الفيلق الثالث عشر، وعن انسحابات ألمانية في ذلك القطاع. أما في مقر القيادة الألماني فكان رومل يشعر بضيق حقيقي. وخوفاً من أن يلقى تقريره أثراً سيئاً جداً في برلين، قرر أن يرسل مساعده الشخصي اللفتنانت برندت لكي يشرح الأمر بنفسه لهتلر. وطلب منه أن يشرح للفوهرر خطته بأن يخوض معارك جانبية إلهائية في الصفوف الخلفية، إلى أن تصل التعزيزات، فإذا لم تصل تمكن من إجلاء قواته بسلام عن طريق المتوسط. انتهى من هذه الترتيبات، وقام إلى مقر القيادة الساحلي يتفقده، فرأى في الطريق قوافل مؤونة إيطالية وتعجب من أن السلاح الجوي البريطاني لم يكن يقصفها. ولدى وصوله إلى المقر أبلغ أن الجيش الثامن لا يقوم بمحاولة جدية لضرب الطابور الإفريقي، الذي لم يعد لديه الآن سوى ثلاثين دبابة، بل هو منهمك في إعادة تنظيم نفسه.

وقرر رومل استغلال هذا الهدوء، لكي يأمر معظم الإيطاليين بالانسحاب. لكن السلاح الجوي البريطاني لم يستطع مقاومة الإغراء بقصف هذه التجمعات على الطريق الساحلي، وكاد رومل نفسه يقضي وهو عائد إلى مقره الرئيس. وبعد عودته بقليل، وصله رد هتلر على التقرير الذي كان بعث به الليلة السابقة:

«إننا نتابع ـ الشعب الألماني وأنا ـ بالثقة المطلقة بشجاعتك وقيادتك، الصراع البطولي في مصر.

وفي هذه الحال التي أنت فيها لا تخطر فكرة سوى الصمود، فلا تسلم شبراً واحداً، وادفع بكل رجل ومدفع إلى أرض القتال. إن تعزيزات جوية ضخمة ترسل إلى القيادة في الجنوب. والدوتشي (موسوليني)، والقائد الأعلى يبذلان أيضاً أقصى الجهود لكي يرسلا إليك جميع وسائل القتال. إن عدوك، على الرغم من تفوقه، لا بد أن يكون هو أيضاً قد استنفذ قواه، ولن تكون هذه أول مرة في التاريخ تنتصر فيها الإرادة القوية على المعارك الكبرى. أما بالنسبة إلى قواتنا فإن لك أن تخيرها بين طريقين لا ثالث لهما: النصر أو الموت!».

كانت تلك ضربة قاصمة لرومل. وفي شيء من اللامبالاة ألغى الأوامر بالانسحاب. إلا أنه أبلغ مساعده برندت تفاصيل جديدة، خلاصتها أن تنفيذ أوامر هتلر يعني القضاء على جيش البانزر خلال أيام. وعلى أي حال بدأ جيش البانزر الآن بالعودة عن حالة الانسحاب، فيما كان البريطانيون يستعدون للاقتحام. إلا أن رومل كان موقناً بأنه سيطوق خلال ساعات بعدو يملك 20 ضعفاً من الدبابات أكثر منه. وفي اليوم التالي تبين له أنه لم يعد من المجدي الإصغاء إلى أوامر الفوهرر، فأمر الطابور الإفريقي بالانسحاب فوراً، فيما أمل مونتغمري بأن يأسر جيش البانز قبل أن يتراجع. لم يعد هناك ما هو مهم سوى سلامة من بقي. لقد انتهت معركة الثعلب الألماني أمام الثعلب البريطاني الضيق العينين.

• • •

كانت معركة العلمين في الواقع معركة مصر. أو المعركة من أجل مصر. وإذ ابتهجت لندن بعد ثلاثة أعوام من الوجوم، أيقنت أيضاً أن الألمان لن يحققوا ذلك الحلم التاريخي بعبور قناة السويس إلى مصر، ومنها إلى منابع النفط. لكنها معركة كبدت فيها أبطالها الكثير من الرجال والمال. لقد بدأها رومل بمائة ألف رجل، أسر منهم 30 ألفاً، بينهم عشرة آلاف ألماني. وقتل أو أصيب 20 ألفاً. وترك رومل في أرض

الميدان 1000 مدفع، و450 دبابة. وترك الإيطاليون خلال انسحابهم 75 دبابة بسبب الافتقار إلى الوقود. وحين انسحب الطابور الإفريقي من مرسى مطروح في 8 تشرين الثاني/ نوفمبر لم يكن لديه أكثر من 20 دبابة. أما خسائر الجيش الثامن، بين قتيل وجريح، فكانت 14500 رجل، أي 8 في المئة من القوة المقاتلة، وعطلت 500 دبابة، ودمر 100 مدفع.

لقد كانت معركة العلمين أهم معركة على أرض عربية خلال الحرب العالمية الثانية، لكنها أيضاً إحدى المعارك التي حسمت مجرى الحرب في كل مكان، وأنزلت الهزيمة بأشهر جنرالات ألمانية.

الجنرال ألكسندر:
من صحاري مصر إلى زيتون تونس

إنه الفيلد مارشال هارولد ألكسندر. وهو إيرلندي الأصل، لكنه سوف يذهب إلى التاريخ العسكري والبريطاني حاملاً اسم تونس. هو إذاً، «ألكسندر لورد تونس».

لقد اختار الاسم الأحب إليه. هكذا فعل غيره من الجنرالات!

إنه أيضاً، الإيرلندي الذي تقاسم مع دوايت أيزنهاور قيادة الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية. الرجل الذي استسلم له مليون عسكري، كما يروي لنا تشرشل في مذكراته! لقد كان هناك أربعة رجال يختارون القادة العسكريين خلال الحرب: تشرشل، ومستشاره العسكري الجنرال آلان بروك، وروزفلت، ومعه الجنرال جورج مارشال، وهؤلاء الأربعة اختاروا معاً للقيادة العليا في أوروبة: أيزنهاور لشمال غرب القارة وألكسندر لقيادة القوات «الحليفة» في إيطالية، التي ستطبق مع قوات أيزنهاور على رجال الفوهرر. لكن الأول عاد إلى بلاده لكي يصبح رئيساً للجمهورية، أما الثاني فعاد لكي يدون مذكراته الحربية والسياسية.

وثمة كتب كثيرة وضعت عن ألكسندر. لكننا وقد قررنا اختيار فصل واحد من كل جنرال، لم نجد أفضل من ألكسندر نفسه يحدثنا عن تونس، وقد عاد إليها بعد سنوات طويلة من نهاية الحرب. لنقرأ معاً هذا الفصل بعنوان «العودة إلى الصحراء الغربية» لكي نرى كيف يتذكر قائد عسكري في أيام السلم، تلك الصحراء التي عرفها أيام الحرب:

«عدت إلى الصحراء في ربيع 1960. ثمانية عشر عاماً مرت! زالت كما تزيل شمس الفجر الندى المبكر. وها أنا أشاهد مرة أخرى زرقة البحر الرائعة ـ زرقة رائعة لدرجة أننا لو وضعناها على لوحة لاعتقدنا أنها خيالية ـ وأشاهد أيضاً الكثبان الرملية البيضاء، وأحس الريح تأتي هادئة من البحر: إنه الماضي يعود إليَّ حياً.

إن المرء ينسى كم هي المسافات عظيمة إلى أن يراها من جديد. والصحراء تبدو خالية تماماً الآن، كأن شيئاً لم يحدث هناك. لكن قبل 18 عاماً كانت الأرض التي نقف عليها تضج بالحركة. أما الآن فما هناك سوى الصمت. لا شيء ـ على ما يبدو ـ ينمو أو يعيش في الصحراء سوى أشجار الشوك. وإنك تلمح بين فترة وأخرى عصفوراً وحيداً يطير من مكان إلى آخر. لا شيء سوى الرمال والمساحات الخالية والريح، وهنا وهناك خيمة بدوي عربي وجمل ما. ويبدو لك وكأن هذه الصحراء تركت من غير إزعاج آلاف السنين، لكنك لا تلبث أن تلمح آثار ذكرى أو أكثر: بقايا علبة تنك صدئة، أو قطعة قديمة من سلك هاتفي، تلك الأشياء الصغيرة تذكرك بأن معركة ما قد وقعت هناك.

رحت أتفقد موقع المعسكر الذي كنا فيه (مبنا) في الصحراء، على أطراف القاهرة، وقد أطل على الصحراء الغربية والجبهة. هنا كان مقر العمليات الرئيس عندما تسلمت القيادة العليا في الشرق الأوسط. هنا أيضاً أمضى الجنرال أوكينلك وعدد من ضباطه بعض الوقت، قبل أن يتسلم قيادة الجيش الثامن في نهاية حزيران/ يونيو 1942. لكنني قبل أن أصل إلى القاهرة في آب/ أغسطس 1942 كان المعسكر قد فكك. وهكذا بدا معسكراً مهجوراً حين وصلت آنذاك،واليوم،في تشرين الأول/ أكتوبر 1960 لم يكن ممكناً أن أعرفه، لولا الحجر الذي يشير إلى أن معسكراً كان قائماً هنا. لقد أقفلت أبوابه وأغلقت نوافذه، لكن لا بد أن بعض الإصلاحات قد أحدثت في السنوات الماضية، ولا بد أن أحداً ما قد جعل من هذا المعسكر بيتاً، لأن ثمة حارساً يقطن ما كان في السابق مطبخاً. إنه عربي بسيط، ومعه ولد صغير، ودجاج وصيصان وكلب وسيارة جيب مهترئة، لعلها آخر الدلائل على الحرب.

وحيث كان مطعم المعسكر المبني من الخيام، ليس هناك الآن سوى الرمال وبضعة أعمدة خشبية مغروزة في الأرض. ولعل الهرم الكبير الذي يطل على موقع المعسكر، قد شهد عبر العصور ثكنات عسكرية كثيرة أخرى. وربما يكون نابوليون قد أمضى ليلة في ظلاله عندما زار الأهرام، كما فعلنا نحن، أهل الجيش الثامن قبل ثمانية عشر عاماً...».

بهذه الكلمات الشاعرية يتذكر الجنرال ألكسندر أحد فصول الصحراء، لكن «العلمين» وضواحي القاهرة لم تدخل التاريخ على أنها معركته، بل تونس هي المعركة. ففي 17 شباط/ فبراير 1943 يتلقى ألكسندر من أيزنهاور البرقية الآتية:

«لقد عينت نائباً للقائد العام لقوات الحلفاء في شمال إفريقية، قائداً لمجموعة الجيوش العاملة في تونس».

وبعد ذلك بنحو ثلاثة أشهر، كان ألكسندر يرسل إلى تشرشل البرقية الآتية في 13 أيار/ مايو 1943:

سيدي، من واجبي أن أبلغكم بأن حملة تونس قد انتهت، وتوقفت كل مقاومة للعدو.

لقد دانت لنا السيطرة على سواحل إفريقية الشمالية».

كان ذلك بعد معركة «العلمين» مباشرة. وكان الناس مأخوذين بانتصار مونتغمري، غير أن قادة الحرب كانوا يعرفون أيضاً أنه لولا دور ألكسندر لظل الانتصار ناقصاً.

ولنعد إلى قصة ألكسندر من أولها!

في كانون الثاني/يناير 1943 اجتمع ونستون تشرشل إلى الرئيس الأميركي فرانكلين روزفلت، وكبار القادة العسكريين من البلدين، في مدينة الدار البيضاء لرسم الخطوات المقبلة ضد قوات «المحور»، الآن وقد أصبحت أميركة طرفاً في الحرب. وانتهى النقاش الطويل في ذلك اللقاء إلى الاتفاق على نقطتين محددتين:

الأولى: احتلال جزيرة صقلية، في اليوم الذي يطلع القمر فيه كاملاً في شهر تموز/ يوليو. والثانية: تعيين أيزنهاور قائداً للقوات الأميركية ـ البريطانية، يُعينه ثلاثة من الضباط البريطانيين، هم: الأميرال كانينغهام للقوات البحرية، والجنرال ألكسندر للقوات البرية، والجنرال تيدر للقوات الجوية.

وتقرَّر أيضاً أن تصبح كل القوات البرية المتجمعة في تونس تحت إمرة ألكسندر. عندما يتمكن الجيش الثامن من عبور الحدود الليبية إلى الغرب من طرابلس، يصبح على مسافة قريبة من قوات الحلفاء، التي كانت تقاتل في الجبال، وأطلق على مقر

قيادة الجنرال ألكسندر اسم المجموعة العسكرية 18، على اعتبار أنه كان مكلفاً بتنسيق عمليات الجيش الأول الذي كان يقوده الجنرال أندرسون في تونس، والجيش الثامن الذي كان يتقدم من طرابلس بقيادة مونتغمري.

وهكذا استُدعى ألكسندر وتيدر إلى الدار البيضاء، ليطلعا تشرشل على تطورات المعركة في الصحراء. وقد تكلم ألكسندر يومها بنبرة الواثق من نفسه، وقال عنه آرثر بريانت: «طار ألكسندر من القاهرة إلى الدار البيضاء، حيث سحر جميع الحاضرين في المؤتمر بما سماه تشرشل الكياسة العفوية المطمئنة».

وقد أكد تشرشل هذا الانطباع بقوله: «بعد يوم أو يومين جاء ألكسندر وقدم لي وللرئيس (روزفلت) تقريراً عن تقدم الجيش الثامن، وترك ألكسندر انطباعاً حسناً لدى الرئيس الذي أعجب به وبما قاله عن اقتراب الجيش الثامن من طرابلس... وكانت ثقته الكبيرة بنفسه من النوع الذي ينعكس على الآخرين».

والواقع أن فكرة تعيين ألكسندر مكان أيزنهاور خطرت في أكثر من بال. وترددت أكثر من مرة في الصحافة العالمية، وعلى ألسن المراسلين. ويعلق روبرت شيروود على الأمر قائلاً:

«في وقت من الأوقات، كان هناك شك في بقاء أيزنهاور قائداً أعلى لعملية غزو صقلية، وكان أكبر منافس لأيزنهاور الجنرال ألكسندر الذي يعلوه رتبة...».

وقد شاركت دول «المحور» في هذه الدعاية، لكن لأغراض في نفسها. أي لزرع الشقاق في صفوف الحلفاء. وفي هذا الشأن كتب الكوماندر بوتشر: «توقَّع راديو برلين نقل إيك (أيزنهاور) إلى... واستلام ألكسندر المسؤولية في إفريقية الشمالية. وقد جاء ذلك وقت تزداد الانتقادات الموجهة إلى أيزنهاور في بريطانية والولايات المتحدة، والتلميحات إلى وجوب استبداله...».

لكن موقف أيزنهاور لم يكن في الحقيقة مهدداً. إذ بالإضافة إلى أن تشرشل كان معجباً بطريقته في قيادة جيوش الحلفاء، فإنه كان يدرك في الوقت نفسه ضرورة أن يكون القائد العسكري الأعلى أميركياً حتى يضمن بقاء المجهود الحربي الأميركي

مركزاً في أوروبة بدلاً من المحيط الهادئ. ومن ناحية أخرى كان تشرشل يعتقد أن مسؤوليات كبيرة وكافية قد أعطيت للجنرال ألكسندر، الذي عُد بطلاً بعد عملية الانسحاب من دنكرك. والواقع أن ألكسندر لم يخذل رئيس حكومته يوماً.

ويذكر أن الأميركيين قبلوا على مضض متابعة العمليات العسكرية في حوض المتوسط بعد سقوط تونس. وقد فعلوا ذلك فقط لكي يبقوا على قواتهم منشغلة ونشطة، بانتظار شن الهجوم على شمال غرب أوروبة في ربيع 1944، على أن تغادر كل العناصر العسكرية والسفن والطائرات الحربية المطلوبة حوض المتوسط لتنفيذ الإنزال في النورماندي خلال الخريف.

وفي المقابل كان ونستون تشرشل مصمماً على إنجاح إستراتيجيته في منطقة المتوسط. كان يريد تحقيق ما يستطيع من انتصارات هناك، قبل أن ينشغل حلفاؤه بالغزو الأوروبي الكبير عبر المانش. ولذلك راح يلح على ألكسندر للعمل على طرد جميع قوات المحور من إفريقية الشمالية بأكبر سرعة ممكنة، من أجل تسهيل الانقضاض على جنوب أوروبة، قبل حلول فصل الشتاء. فالأميركيون كانوا يعارضون القيام بأي عمليات رئيسة في المطر والوحل.

وصل ألكسندر إلى الجزائر في 18 شباط/ فبراير، مصطحباً معه الجنرال ديك ماك كريدي كرئيس للأركان، إلى جانب مجموعة من الضباط البريطانيين الذين عملوا في القاهرة، وذلك لتشكيل نواة للمجموعة 18 في مدينة الجزائر. وفي مقابل ذلك كان مقر قيادة الجنرال أيزنهاور يعمل في الجزائر أيضاً، ولكن «على الطريقة الأميركية». وأمضى ألكسندر ليلته الأولى في المدينة يفكر في كيفية معاودة مد الجسور بينه وبين أيزنهاور بعدما كانت قد انقطعت قبل نحو السنة.

يقول الكوماندور بوتشر: إن التصالح بين الرجلين بدأ عندما «قال الجنرال ألكسندر إنه أصيب بخيبة أمل لإلغاء أول مهمة كلف بها تحت إمرة أيزنهاور، بعد 24 ساعة من التكليف».

وردَّ أيزنهاور بأن أعرب عن رضاه التام لما قام به ألكسندر ومونتغمري خلال ملاحقة رومل في الصحراء. وأعرب عن اعتقاده «بأن القيادة ستكون من نصيب ألكسندر بعد كل المنجزات التي حققها».

في هذه الأثناء كانت تطورات مهمة تجري في الميدان. فقد تدهور وضع الحلفاء في تونس منذ اجتماع الدار البيضاء، إذ تمكنت قوات المحور من نقل التعزيزات بسرعة كبيرة بفضل الجسر البحري الجوي الذي أقيم بين إيطالية وصقلية وتونس. وفي هذا الوقت أخلى رومل مدينة طرابلس، بعد أن دمرت قواته تجهيزات المرفأ وعطلتها. وانضمت هذه القوات إلى قوات فون آرنيم المسيطرة على وسط تونس وشمالها.

أما مونتغمري فوجد نفسه عاجزاً عن التقدم بسبب الشلل الذي أصاب مرفأ طرابلس. في حين بات التفوق العددي لقوات المحور في تونس ينذر بعواقب وخيمة. وفي الجبال الشمالية حول تونس المدينة وبنزرت، أوقفت قوات فون آرنيم الجيش البريطاني الأول بقيادة أندرسون عن التقدم. ولم تكن قوات الجنرال كولتز (فرنسي) والجنرال فريديندال (أميركي)، التي تولت القتال على المحاور الأخرى للجبهة التونسية بأفضل حال من قوات أندرسون، وقد عانت الأولى غياب العدد الكافي من الدبابات والمدفعية الثقيلة، في حين عانت الثانية قلة الخبرة وسوء التدريب.

وقد سبب ذلك مشكلات جمة لأيزنهاور، الذي وجد مشقة كبيرة في قيادة العمليات، لاسيما أن الجنرال الفرنسي رفض العمل تحت إمرة الجنرال أندرسون لأنه بريطاني، لذلك اضطر أيزنهاور إلى الإمساك بزمام القيادة بنفسه من مقره في قسطنطينة (الجزائر). ولم تسهل مهمة أيزنهاور إلا بوصول الجنرال ألكسندر.

بدأ الهجوم الألماني في 14 شباط/فبراير، في وقت كان الجنرال ألكسندر يودع القاهرة، وسرعان ما تفوق جيش فون آرنيم على الفرنسيين والأميركيين في أكثر من محور وموقع، فاخترق دفاعات قوات فريديندال في الفايد، بينما احتل جيش رومل قفصة. وتراجع الأميركيون بقيادة فريديندال لإقامة تحصينات دفاعية جديدة في الكاف وتبسة.

ووسط هذا الجو المقلق بالنسبة إلى الحلفاء، قام ألكسندر بأول جولة له في مواقع القتال، تمهيداً لتسلمه القيادة في 20 شباط/فبراير. ولم تكن حصيلة الجولة التي رافقه فيها الجنرال ديك ماك كريدي مشجعة على أي حال، لأن الوضع كان يعاني من الفوضى، على الرغم من جهود أندرسون ومحاولاته ضبط الأمور. ولاحظ ألكسندر أن الروح المعنوية لدى الجنود، ولاسيما لدى الأميركيين كانت ضعيفة، وأن خليط الجنسيات بين القوات المسلحة سبب كثيراً من الارتباك، وانعدام التنسيق والتنظيم. وأدرك ألكسندر بفضل خبرته الطويلة أسباب الوضع المتدهور لقوات الحلفاء في شمال إفريقية، وفهم تماماً أن ما يعانيه الأميركيون يعود إلى قلة خبرتهم الميدانية، وشعورهم بالفارق الشاسع بين حرب النظارات والحرب الدقيقة.

وفي ليلة 19 ـ 20 شباط/فبراير تمكنت قوات رومل من طرد الأميركيين من ممر القصرين، وفتح الطريق باتجاه تبسة والكاف، الأمر الذي استدعى إرسال تعزيزات بريطانية للإسهام في وقف المد الألماني الجديد.

أما القوات الفرنسية فكانت من سوء التجهيز، بحيث لم تكفها الشجاعة البالغة للصمود ميدانياً.

قرر ألكسندر تولي قيادة المجموعة العسكرية 18 يوم التاسع عشر من شباط/فبراير، أي قبل يوم واحد من الموعد المحدد، وذلك لأن الوضع في القصرين لم يكن يحتمل الانتظار. وفي ذلك الوقت اعتبر رومل أن ما لديه من قوات لا يخوله متابعة الهجوم واحتلال المزيد من مواقع الحلفاء، كما أنه لم يكن يستطيع ترك مونتغمري يجهز قواته بهدوء على الجبهة الجنوبية لتونس. وهكذا أمر رومل قواته بوقف الهجوم للاستعداد لمواجهة الجيش الثامن الذي يقوده مونتغمري.

ولعل أفضل ما يعبر عنه الوضع الميداني على الجبهات التونسية، ما جاء في رسالة بعث بها ألكسندر إلى بروك بعد تسلمه مهام القيادة: «الوضع غير مرضٍ أبداً. والقوات البريطانية والأميركية والفرنسية تعاني من الارتباك، ولاسيما على الجبهة الجنوبية، ولا تملك خطة واضحة أو توجهاً عسكرياً موحداً. لقد فقدنا المبادرة».

بعد هذه الرسالة بأيام ثلاثة، أبرق ألكسندر إلى لندن يقول: إن الوضع على الجبهة سيئ، دون أن يعرف بأن رومل بدأ بالانسحاب... وبعد أيام قليلة كتب ألكسندر إلى تشرشل وبروك قائلاً: «لقد صعقني واقع الحال هنا. وإذا كان من واجب أندرسون تنظيم الأمور بسرعة أكبر مما فعل، فإن الوقت لم يسمح له لأنه لم يتسلم القيادة فعلياً إلا في 24 كانون الثاني/ يناير، الأكبر هو غياب التوجيهات من رؤسائه وغياب أي خطة واضحة ومحددة. وأنا أشك في كون أندرسون مؤهلاً لهذه المهمة، على الرغم من المزايا التي يملكها... لا أريد تثبيط العزائم، لكن النصر النهائي في إفريقية الشمالية ليس أمراً قريب الحصول، وعلينا القيام بالكثير لتحسين أوضاع القوات البرية والجوية، والجنرال أيزنهاور يبدي كل التعاون...».

كان في مقدور ألكسندر وضع الخطة العسكرية التي شكا من غيابها، لكن عدم ثقته بالأميركيين لم يكن أمراً يمكن حله بين ليلة وضحاها، علماً أن بعض الناس اعتقد أن ألكسندر قد ظلمهم، وأن الأميركيين كانوا قادرين على تحقيق قفزات نوعية وسريعة والتعلم من أخطائهم.

كانت الخطة الأسهل في نظر العسكريين تجميع القوات في منطقة «الفندق»، والاندفاع باتجاه القيروان إلى سوسة الساحلية، أو الاندفاع من الفايد في اتجاه صفاقس، لقطع الخط الذي يربط بين جيش فون آرنيم وجيش رومل، لاستفرادهما في مرحلة لاحقة... والواقع أن فكرة القيام بهذه العملية كانت تدور في خلد أيزنهاور منذ شهر كانون الأول/ديسمبر، لكن ألكسندر عارض الفكرة عندما طرحها أيزنهاور في لقاء الدار البيضاء، لأن تنفيذها قد يؤدي إلى حشر جيش فريدينداال الأميركي بين جيشين ألمانيين حسني التدريب، ويجعله لقمة سائغة بين فكي كماشة.

كان ألكسندر واقعياً، يقيس الأشياء بمقياس العقلانية والتروي، وقد أخذ بعين الاعتبار أربعة عوامل عندما بدأ بوضع الإستراتيجية العسكرية لمعركة تونس. العامل الأول: هو الازدياد المضطرد لقوة جيشي فون آرنيم ورومل براً وجواً، بفضل سيل الإمدادات المتدفق عبر الجسر، البحري ـ الجوي الذي يمر بصقلية، الأمر الذي يوجب شل فاعلية هذا الجسر من خلال تحقيق التفوق الجوي لقوات الحلفاء في ذلك

الجزء من البحر المتوسط، وهو أمر لا يمكن القيام به إلا باحتلال أكبر قدر ممكن من المطارات والمدرجات التي تستطيع الطائرات الانطلاق منها، وبلوغ المسالك البحرية المفضية إلى المرافئ التونسية، علماً أن معظم المطارات في تونس تقع في السهل الأوسط بين قابس جنوباً والنفيضة شمالاً.

العامل الثاني هو التقدير الحقيقي لقوة جيش فون آرنيم وروميل، فألفوهرر كان يعلق آمالاً كبيرة عليهما، لإلقاء قوات الحلفاء بعيداً عن جنوب أوروبة، ولذا أمر بإجراء تعديلات في هيكلية القيادة بعد معركة القصرين، مكلفاً روميل بتنسيق كل العمليات بين جيشه وجيشي فرن آرنيم، كما تسلم الجنرال الإيطالي ميسي القيادة المباشرة للجيش الذي كان تحت أمر روميل.

العامل الثالث: هو التقدير الحقيقي للقوة الموضوعة في تصرف ألكسندر نفسه. الجيش البريطاني الأول الذي يقوده أندرسون في شمال تونس كان على قدر مقبول من الفاعلية، ولاسيما بعد انضمام الجنرال جون كروكر إليه، وتعزيزه بفرقتين من المشاة استقدمتا من إنكلترة. أما القوات الفرنسية التي يقودها الجنرال كولتز، فكانت تعاني من نقص فادح في التجهيز، ومن عدائية الأنكلوسكونيين، مع الإشارة إلى أن عناصرها كانوا يملكون خبرة جيدة في حرب الجبال.

تبقى القوات الأميركية بقيادة الجنرال فريديندال، وكانت مجهزة بأكثر مما تحتاجه، ومدفوعة بالشجاعة والإقدام اللذين تنقصهما الخبرة والتدريب الكافي.

ويمكن أن يضاف إلى هذا العامل، وجود الجيش البريطاني الثامن بقيادة مونتغمري في الجنوب، وهو جيش كان يتفوق بنوعيته على كل القوات التي في تصرف ألكسندر. وهكذا يتضح أن هدف الجنرال ألكسندر المباشر والملح كان في رفع مستوى قوات الحلفاء في تونس، بما يجعل أداءها متقدماً، ويبدأ ذلك أولاً بإعادة تنظيم الجبهة، وتقسيمها إلى قطاعات، تتولى القتال فيها القوات البريطانية والفرنسية والأميركية، من غير تداخل بين العناصر، بحيث يكون الجندي خاضعاً لأوامر ضباط من مواطنيه. وبعدها يكلف كل جيش بمهمات يستطيع تنفيذها وفقاً لقدراته، حتى تتعزز الثقة، وتبنى الخبرة القتالية بالشكل الصحيح.

العامل الرابع والأخير كان طوبوغرافياً: وخلاصته أن تنتشر قوات المحور في منطقة واسعة يحدها البحر شمالاً وشرقاً، والجبال غرباً، ومستنقعات المياه المالحة جنوباً حتى حدود قابس الساحلية، وانطلاقاً من هذا الواقع الجغرافي الصعب كان أمام قوات الحلفاء طريقان: أولهما: الانطلاق داخل الصحراء لمهاجمة قوات المحور من الطرف الغربي، والثاني: سلوك الطريق الضيقة بين قابس والمستنقعات المالحة. وكانت الطريق الأولى صعبة وغير عملية بالنسبة إلى قوات عسكرية كبيرة الحجم، في حين كانت الطريق الثانية شبه مستحيلة، بسبب طبيعة المنطقة الجغرافية، واحتماء قوات المحور خلف التحصينات الدفاعية التي بناها الفرنسيون في مارث.

وقد لخص ألكسندر خطته المبنية على العوامل الأربعة المذكورة قائلاً: «يجب أن تقسم الحملة العسكرية إلى مرحلتين: في المرحلة الأولى ينفذ الجيش الثامن إلى شمال قابس، حيث يصبح متصلاً بالجيش الأول ويكرس تفوقه في القدرة على الحركة والقوة النارية... وفي المرحلة الثانية يجب أن تكون مهمة الجيشين الأول والثامن احتلال القدر الكافي من المطارات والمدرجات، لتحقيق التفوق الجوي البريطاني ـ الأميركي. وعندما نصل إلى هذا الهدف يصبح بوسعنا تضييق الخناق على مواقع العدو».

1- الهدف: تدمير قوات المحور في تونس في أقرب وقت ممكن.

2- المجموعة العسكرية: تسيطر المجموعة العسكرية 18 على الجيش الثامن، والفيلق الأميركي، والجيش الأول، والفيلق الفرنسي.

3- القطاعات: توزع القوات البريطانية والفرنسية والأميركية على قطاعات مختلفة، ويكون الجنود خاضعين لإمرة ضباط من مواطنيهم، بالقدر الذي يكون ممكناً.

4- التنظيم: تعمل الفرق العسكرية بوصفها فرقاً كاملة، ولا تقسم إلى مجموعات صغيرة.

5- القوات الخاصة مثل فرق الكوماندوس والمظليين تسحب من أرض المعركة في أقرب فرصة، من أجل الراحة وإعادة التدريب والتجهيز.

6- احتياطي المجموعة 18 يتكون من: 6 فرق مدرعة، وفرقة مشاة بريطانية، و9 فيالق عسكرية، ولواء مظليين، و6 فرق كوماندوس، والفيلق التاسع الذي يخضع لتدريبات مكثفة على العمليات الهجومية.

7- الاحتياطي المحلي: على كل فيلق أن يعمل على إيجاد احتياطي خاص به يضم فرقة مشاة وفرقة مدرعة.

8- المدرعات: تسحب الدبابات من الخطوط الأمامية وتجمع بوصفها احتياطياً محلياً لتؤدي دورها في الهجمات المعاكسة.

9- القواعد الثابتة: تحول المواقع الأساسية إلى قواعد ثابتة وحصينة تساندها المدفعية والدبابات، وتراقب الدوريات الدائمة في المناطق الفاصلة بين هذه القواعد. ويكون التعامل مع أي خرق صغير يقوم به العدو لهذه المناطق من مهمة الاحتياطي المحلي، في حين يتولى احتياطي الفيلق التعامل مع أي خرق كبير.

10- يكون الموقف في الجبهة حالياً دفاعياً، وإنما بروحية الاستعداد للهجوم، مع ضرورة إقامة دوريات مستمرة، وعمليات هجومية صغيرة، تهدف إلى تحسين المواقع، وتدريب الوحدات العسكرية، والإمساك بزمام المبادرة...

وهكذا نرى أن ألكسندر اعتمد التكتيك العسكري الذي أثبت نجاحه قبل معركة العلمين، إنما على نطاق واسع يشمل مجموعة جيوش كاملة.

ومن ناحية أخرى يسجل أن ضابطاً كبيراً واحداً فقد مركزه خلال هذه المدة، بمبادرة من أيزنهاور لا من ألكسندر. فبعد معركة القصرين رأى أيزنهاور أن القوات الأميركية فقدت الثقة بقائدها فريديندال، فاستدعى الجنرال باتون من المغرب للحلول محله.